الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جـــــــــامعة أحمد دراية ـ أدرار

كليـــــــــــة الآداب واللغات

قســـــــم اللغة والأدب العربي

فضاء الصحراء في الرواية الجزائرية

اعترافات اسكرام لعز الدين ميهوبي أنموذجاً

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص :دراسات جزائرية في اللغة والأدب العربي

إعداد الطالبتين :

كريمة شنيني

مريم زويني

إشراف الأستاذ:

عبد الله كروم

السنة الجامعية

1437 .1438هـ/2015 ـ2016م

كلمة شكر وعرفان

قال تعالى :﴿ ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ الأحقاف ،الآية 15.

أول ما نتوجه إليه في هذا العمل هو المولى سبحانه وتعالى الذي وفقنا في عملنا هذا فبفضله تتم الأعمال والصالحات .

والشكر موصول إلى أستاذنا المحترم عبد الله كروم الذي قبل برحابة صدره وطيبة قلبه الاشراف على هذا العمل ، والشكر موصول أيضاً للأستاذ عبدالله العياشي لأياديه البيضاء على هذا البحث، والشكر أيضاً للدكتور عبد القادر اقصاصي على توجيهاته القيمة الثمينة.

إلى كل من قدّم لنا يد العون والمساعدة وساهم في إخراج هذا البحث على الوجه الأنسب.

مريم -&&- كريمة

المدخل : قراءة معجمية ومصطلحية في مفردات العنوان

تمهيد:

شهدت الدراسات والأبحاث السردية في السنوات الأخيرة اهتماما كبيراً بالعتبات النصية وتباينت تسمياتها بين العتبات عند جيرار جينيت(genette) أو هوامش النص عند هنري ميثران أو العنوان بصفة عامة عند (شارل كريفل) أو ما يسمى اختصارا بالنص الموازي ،وما له من علاقة جدلية مع النص بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وعلى رأس هذه العتبات العنوان .

تأسيسا على ما سبق يمكن القول إن العنوان يمثل بطاقة هوية للنص وسمة فارقة عن غيره ،به تنماز الرواية ويذيع صيتها ،فالعتبة أو العنوان يشكل خلفية معينة يستند إليها الأديب في اختياره إذ العنوان قد لا يتعدى كلمة واحدة لكنه يحتوي النص ويعبر عنه بصفة مباشرة.

لقد أضحى العنوان في الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة عتبة يلزم على الدارسين الوقوف عندها بتأن وامعان فالعنوان جسر واصل بين النص وكاتبه وبين العنوان والنص بنية كتابية تعلو على هذا الأخير ،وتتعالق معه دلالياً فمن وظائف العنوان تقديم فكرة جامعة وشاملة عن النص الأدبي ، لتجعل القارئ أو المتلقي يدرك بعض غيبياته من ناحية الموضوع قبل أن يقرأه وهذا من خلال عتبة العنوان وحري بنا أن نثير بعض التساؤلات :

ـ هل يمكن للعنوان باعتباره أول عتبة تواجه القارئ أن يكشف عن مضمون النص ويحيل إليه، أم إنه مجرد إجراء شكلي في أي إبداع أدبي؟.

ـ وهل تتيح سيميائية العنوان الظّفر بجماليات أكثر في مجال النقد الأدبي ؟.

قد يكون من شأن العنوان أن يجبر المتلقي على قراءة العمل الأدبي وقد يثير له الحدسية والفضول اللذين يخضعانه لاستكمال قراءة هذا العمل ، وقد يثير العنوان في ذهن المتلقي تساؤلات عدة لا يستطيع الإجابة عنها ما لم يسبر غور النص وهذا ما عمد إليه الكثير من الأدباء ، فخلقوا بذلك الوظيفة الإغرائية التي توجد بين ثنايا العنوان والنص الأدبي.

فالعنوان هو العتبة الأولى والمولد الفعلي لتشابكات النص وأبعاده الفكرية لكونه علامة سيميولوجية كائنة في بداية النص الأدبي تجعل القارئ يتقبله ويتفاعل معه ويتلذذ به، بما يحتويه من دلالات فنية وجمالية حتى يحل به ألغاز الأحداث وايقاع نسقها الدرامي وتوترها السردي.

فالعتبة تسمية أطلقها (بأخيتين) في دراسته لأعمال (دوستويفسكي) ، حيث لاحظ أن "الكاتب يستخدم في رواياته رمزاً خاصاً يتمثل في المداخل والممرات، والأبواب، والنوافذ، المشرعة على الشوارع، والحانات والأكواخ والفنادق والخنادق وشتى وسائل النقل"[1]

الفضاء(L'espace):يعد الفضاء من المصطلحات الأدبية النقدية التي دخلت عالم الدراسات والبحوث حديثاً ، وفرضت نفسها بقوة فالفضاء يعد عنصراً أساسيا من عناصر النص الروائي لأنه يمثل وعاء الشخصية والزمن الروائي والحدث والاسس الفنية والجمالية التي ينهض عليها معمار المتن الروائي ،إذ يتخذ العلوم الإنسانية مجالاً للتنظير والممارسة ، وقد نشأ عن هذا الاهتمام بروز دراسات كثيرة جعلت من دراسة هدا المفهوم شغلاً أساساً لها[2] .

إن الفضاء استراتيجية يتخذها الراوي لبناء روايته إذ يقوم القارئ أو الناقد بدراسته «الفضاء» من أجل الكشف عن جماليات الرواية وأسلوبها .

ومما سبق نلاحظ أن الرواية قد تخللتها عدة مفاهيم لذلك ارتأينا أن نعرج على هذه المفردات ومن بينها كلمة فضاء إذ تداخل هذا الأخير بمفهوم المكان وهو ما نعنيه بمصطلح الفضاء الجغرافي .

الفضاء لغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور في مادة [فضاء] دلالة إلى المكان الواسع والفعل فضا يفضو فهو فاض، وفضا المكان وأفضى إذ اتسع ، وأفضى فلان إذا وصل إليه و صار في فرجته وفضائه وحيزه ، والفضاء الخالي الواسع من الأرض[3].

و في معجم مقاييس اللغة : الفاء والضاد والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ يدل على اتساع في شيء واتساع منك الفضاء، ويقول أفضى الرجل إلى امرأته باشرها والمعنى فيه عندنا أنه شبه مقدم جسمه بفضاء ومقدم جسمها بفضاء فكأنه لاقى فضاءها بفضائه [4].

جاء في مختار الصحاح كلمة فضاء الفضاء الساحة وما اتسع من الأرض وقد أفضى خرج إلى الفضاء وأفضى إليه بسره وأفضى بيده إلى الأرض مسها بباطن راحته في سجوده

---

[1]- الفضاء الروائي في الغربة،(الاطار والدلالة)،منيب محمد البور يمي، الطبعة الأولى – سلسلة دراسات تحليلية – دار النشر المغربية ،1984 ص 11 .
[2]- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، سعيد علوش ، ط1 ، بيروت – لبنان ، دار الكتاب اللبناني سوسبريس ، 1985 مادة الفضاء ، ص 163 .
[3] - لسان العرب، ابن منظور مادة(ف.ض.ى) دار الجيل ، بيروت ، دار لسان العرب (1408- 1988) ، ص : 285 .
[4]مقاييس اللغة، لابن فارس مادة (فضي) المجلد الرابع، دار الجيل بيروت ط1 سنة 1411ه، 1991 م ص508.

وورد في القاموس المحيط فضا المكان فضاءً وفضو اتسع كأفضى ودراهمه لم يجعلها في صرة والفضاء هو الشيء المختلط بالمد الساحة وما اتسع من الأرض وأفضى المرأة جعل مسلكيها واحد فهي مفضاة والبها جامعها أو خلا بها وإلى الأرض مسها براحته في سجوده[5]

مما سبق نستشف أن كلمة فضاء في اللغة تدل على عدد من المعاني والمفاهيم، وهي: الاتساع والواسع من المكان والرحابة والفرجة.

أما الفضاء اصطلاحاً: فهو الحيز المكاني التي تظهر فيه الشخصيات والأشياء المتلبسة بالأحداث تبعاً لعوامل عدة تتصل بالرؤى الفلسفية وبنوعيه الحس الأدبي وبحساسية الكاتب الروائي.[6]

لقد كان الفضاء في بداية ظهوره مصطلحاً أدبيا غير واضح المعالم ،يفتقر لمعرفة نظرية عميقة ، إلا أن كتابات الألمان أمثال مايير وهنري ميثران أسهمت إلى درجة كبيرة في تقريب الأسس الجمالية لمصطلح الفضاء .[7]وقد اتخذ الفضاء عند جيرار جينيت أربعة أشكال أهمها :

1- الفضاء الجغرافي(Espace géographique): وهو مقابل لمفهوم المكان ، ويتولد عن طريق الحكي ذاته ، إنه الفضاء الذي يتحرك فيه الأبطال ويفترض أنهم يتحركون فيه .

2- الفضاء الدلالي(Espace sémantiques): ويشير إلى الصورة التي تخلقها لغة الحكي وما ينشأ عنها عن بعد يرتبط بالدلالية المجازية بشكل عام .

3- الفضاء النصي :(Espace textuel) وهو فضاء مكاني أيضاً ، غير أنه متعلق فقط بالمكان الذي تشغله الكتابة الروائية أو الحكائية ،باعتبارها أحرف طباعيه .

4- الفضاء كمنظور أو كرؤية(Espace comme vision): ويشير إلى الطريقة التي يستطيع الراوي الكاتب بواسطتها أن يهيمن على عالمه الحكائي بما فقيه من أبطال يتحركون على واجهة تشبه واجهة الخشبة في المسرح .[8]

من خلال دراستنا لمفهوم الفضاء يتبين أن الفضاء الجغرافي وفضاء النص هما مبحثان حقيقيان في فضاء الحكي باعتبارهما المكان المحرّك للأبطال ،أما الفضاء الدلالي فهو الصورة المتواجدة في الحكي، والفضاء كمنظور هو وجهة نظر الراوي للرواية .

---

[5]القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده (القاهرة) ط2 1371هـ-1952م ج4 مادة فضا ، ص:376 .

[6]ـ الفضاء الروائي في الغربة ،محمد منيب ،ص:21.

[7]ـ معجم السيمائيات ،فيصل الأحمر ،ط1،1431 هـ ــ2010 م دار العربية للعلوم بيروت ،،ص:123 ــ 128.

[8]ـ بنية النص السردي، حميد لحميدان ،من منظور النقد الأدبي،(المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع)، الدار البيضاء (د.ط) (د.ت)ص:26.

بناء على ما مر ، يتبين أن طرح حميد لحميدان لا يختلف عما جاء في موسوعة ويكبيديا (wikip dia) التي حصرت الفضاء في أربعة مفاهيم لا غير :(on peut considérer l'espace sous quatre principaux aspects , au sens topographique ,d abord comme lieu géographique , comme territoire ou étendue matérielle, Au sens épistémologique; Ensuite comme aire conceptuelle définie par des métaphores spatiales ,puis ,au sens poétique comme déploiement de la créatrice. Enfin .dans ses relations originelles avec les temps.)*[9]

وعليه ،فالفضاء أو المكان هو العنصر الأساسي والمهم في تكوين الرواية ولابد من وجوده لأنه الركيزة الأساسية لبناء الرواية.

ويرى شربيط أحمد شربيط أن أول من أدخل مصطلح الفضاء إلى المعجم العربي الحديث هو سعيد علوش في عمله الموسوم (معجم المصطلحات العربية)،وقد أورد فيه التعاريف التالية:

1- يُستعمل مصطلح الفضاء في السيمائيات كموضوع تام يشتمل على عناصر غير مستمرة ،لهذا جاءت لتكون موضوع الفضاء.

2- يفترض الفضاء اعتبار كل الحواس في سيميائية الاهتمام بالفاعل كمنتج ومستهلك للفضاء .

3- تثبت سيميائية الفضاء عن التحولات التي تعانيها السيميائية الطبيعية بفضل تدخل الإنسان في انتاج علاقات جديدة[10].

إن استراتيجية الفضاء في السرد تتنوع في كونه إطاراً يشتمل على أحداث فالحدث الروائي لا يقدم إلا مصحوبا بجميع إحداثياته الزمانية والمكانية ويتسع مفهوم الفضاء ليشمل البيئة الطبيعية والصناعية بمختلف أنماطها ووظائفها ،وكل الأماكن التي تعيش فيها الشخصيات الروائية [11]

- أما لفظة الفضاء (Espace) في الفرنسية ، تذكر موسوعة ويكبيديا(Wikipédia) أنها مشتقة وتنحدر من سليلتها اللاتينية: (Espace . Français, masc., du latin stadium entendue dans le temps au l'espace, distance (…) de l'ancien. Français le mot passe en moyen de l'anglais sous la forme space et suit une évolution sémantique parallèle)[12]

---

[9] WWW wikip dia.org.espace étude sémantique/définition .

[10]- الفضاء الادراكي ،شربيط أحمد شربيط ، دار المعارف ، دط ص:145.

[11]معجم السيمائيات ،فيصل الأحمر ،ص ،ص :123 –128

[12]-wwwwikip dia.org.espace étude sémantique/définition .

إذن الفضاء لفظة فرنسية من أصل لاتيني والتي تعني امتداد في الزمن أو المكان، البعد، تمر كلمة الفضاء من الفرنسية القديمة إلى الإنجليزية الحديثة بتغير صوتي وتغير دلالي مماثل.

- الكرونوطوب (chrono tope): كتطوير لمفهوم الز مكانية:

إن علاقة الزمان بالمكان سؤال مشروع، متى يبدأ الأول وأين ينتهي الثاني؟ وهل يمكن فصلهما؟ هذه الاشكالية تجيب عنها الناقدة (سيزا قاسم) بصدد حديثها قائلة:"إذا كان الزمن يمثل الخط الذي تسير عليه الأحداث ، فإن المكان يظهر على الخط ويصاحبه ويحتويه"[i]، وتواصل حديثها في كتاب آخر شارحة تلك العلاقة قائلة :" يدرك الزمان إدراكاً غير مباشر من خلال فعله في الأشياء، يدرك المكان إدراكاً حسيا مباشراً،(...) فمن معناه الفيزيقي ، القريب البعيد المرتفع المنخفض إلى معناه الميتافيزيقي المتدني الرفيع الوضيع ".[13]وإذا كانت سيزا قاسم قد أجابت عن الشق الأول من السؤال ، فإن قسيمه الثاني استوقف الناقد الروسي باختين (Bakhtine*) ،عام 1938 في كتابه "أشكال الزمان والمكان في الرواية"، فأطلق مصطلحاً ثالثا يجمع الزمان والمكان ، فكان الكرونوطوب الذي يعد "انعطافه في تطوير مفهوم المكان (..) ويفيد هذا التطور في المفهوم إلى صعوبة الفصل بين الزمان والمكان في شكل العمل الفني"[14]

فالفصل لا يكون في الواقع إلاّ اجرائيا من أجل الدراسة أو بحثا عن التبسيط ، ويتحقق في النظرة المجردة التي يسعى الدارس إلى عزلها وافتراضها.

الصحراء :

لغةً ،ورد في الصحاح حول مادة [صَحَرَ] الصحراء البرية وهي غير مصروفة وإن لم تكن صفة للتأنيث ولزوم حرف التأنيث له ....تقول صحراء واسعة ولا تقل صحراءة، فتدخل تأنيث على تأنيث ،والجمع الصحاري والصحراوات بفتح الراء وكذلك جمع فعلاء إن لم تكن مؤنث، فعل مثل عذراء ،وخبراء ،وبعض العرب تقول الصحاري بكسر الراء وهذه صحارٍ كما تقول جوازٍ ،وأصحر الرجل خرج إلى الصحراء[15].

وجاء في لسان العرب أن الصحراء من صحر والصَّحر غبرة في حمرة حقيقية إلى بياض قليل،والصحراء مستوية وفضاء واسع وقيل الصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد ليس بها شجر ولا إكام ولا جبال ملساء [16].

---

[13]- القارئ والنص، سيزاقاسم ،العلامة والدلالة، المجلس الأعلى للثقافة،(دط)،2002 ،ص37.

* ميخائيل بأختين:(1885-1975) اشتغل في بعض الجامعات الداخلية بالاتحاد السوفياتي من أهم آثاره (الماركسية وفلسفة اللغة)سنة1929، (قضايا الشعرية عند دستوفكسي)، (الجمالية ونظرية الرواية)سنة 1965 ،(جمالية الابداع اللغوي) صدر بعد وفاته سنة 1979 .ينظر:تودوروف :نقد النقد، سامي سويدان ،مركز الإنماء القومي ، بيروت ،دط، 1986 ،ص73.

[14]- جماليات المكان في النقد الأدبي العربي المعاصر ،- جمالية المكان ، غاستون باشلار ترجمة غالب هيليسا ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ،الطبعة السادسة ،(1427 ه – 2006 م)، ص 123.

[15]- معجم مختار الصحاح ، عبد القادر الرازي ، دار الحديث بجوار إدارة الأزهر ، دط ،ص:356.

[16]- لسان العرب لابن منظور ،مادة [صَحَرَ] ،ج4، ص : 443 .

وورد في كتاب مقاييس اللغة :الصاد والحاء والراء أصلان أحدهما البراز من الأرض، والآخر لون من الألوان ،فالأول الصحراء الفضاء من الأرض ويقال أصحر القوم إذ برزوا ومن الباب قولهم لقيته صحرة بحرة إذ لم يكن تبك وبنيته ستر والصحرة الصحراء في قول أبي ذؤيب [17]:

سَبيٌ من براعته نفاه أتي مده صَحَرٌ ولَوْبُ

والأصل الآخر الصحرة وهو لون أبيض مشرب حمرة وأتان صحراء في لونها صحرة ،وهي كهبة في بياض وسواد ويُقال أصحر النبت إذا هاج وذلك أن لونه يتغير ويختلط[18].

وفي كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر:في مادة صحر وفيه كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين صحاريين، صحار قرية باليمن نسب الثوب إليها، وقيل هو من الصحرة وهي حمرة خفية كالغبرة يقال ثوب أصحر وصحاري ؛ وفي حديث علي رضي الله عنه *فأصحر لعدوك وأمض على بصيرتك* أي كن من أمره على أمر واضح منكشف من أصحر الرجل إذ خرج إلى الصحراء[19]

وفي تاج العروس :قال ابن سميل : الصحراء من الأرض :مثل ظهر الدابة الأجرد ليس بها شجر ولا إكام ولا جبال ملساء يقال صحراء بنية الصحر والصحرة.[20]

وورد في معجم اللغة العربية المعاصرة في مادة صحر صحراء مفرد ج صحراوات وصحارى وصحار وصحاري : أرض فضاء واسعة نادرة الماء مرتفعة درجات الحرارة ولا حياة فيها تعيش البدو في الصحراء حياة صعبة.[21]

أما في الاصطلاح فإن الصحراء أرض قاسية بمناخها قاحلة بطبيعتها فقيرة بإنتاجها الزراعي، ينظر إليها اليوم كجزء لا يتجزأ من تراثنا الطبيعي وإن كانت الصحراء فقيرة في انتاجها الزراعي المادي، إلا أنها غنية بتراثها الثقافي وبإنتاجها الرمزي فهي دوماً أوسع فضاء[22]

إذن فالصحراء ليست ذلك الخلاء الموحش وذاك الفقر الداكن الموحي بالخطر ، وهي ليست ذلك المكان الجاف الفقير بإنتاجه الزراعي والمادي ، بل هي تلك البقعة الفردوسية الرائعة الغنية بموروثها الثقافي والأدبي والفني والإبداعي وحتى التراثي.

والصحراء ،من منظور الروائي "ابراهيم الكوني" :[الصحراء وحدها تغسل الروح ، تتطهر . تخلو . تتفرغ. تتفضى. فيسهل أن تنطلق لتتحد بالخلاء الأبدي، بالأفق. بالفضاء المؤدي إلى مكان خارج الأفق ، وخارج الفضاء بالدنيا

---

[17]- أبي ذؤيب الهذلي هو خويلد بن خالد بن محرف ابن مدركة المضري من بني هذيل شاعر فحل مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام واشترك في الغزو والفتوح وقيل مات في إفريقيا سنة27 ه –648م .

[18]- معجم مقاييس اللغة ،مادة [صَحَرَ] المجلد الرابع ،ص : 364 .

[19]- كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر الإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير المكية الإسلامية ج3 ص12

[20]- معجم تاج العروس للفيروزبادي مادة صحر ، دار صادر ، بيروت ، ج 4 ص :

[21]- معجم اللغة العربية مادةص.ح.ر رقم 2973ص162

[22]- الرواية والتحليل النصي ، حسن المودن دار العربية للعلوم ص62

الأخرى . بالآخرة. نعم. بالآخرة . هنا فقط، هنا في السهول الممتدة، في المتاهة العارية، حيث تلتقي الأطراف الثلاثة: العراء – الأفق – الفضاء، لتنسج الفلك الذي يسبح ليتصل بالأبدية بالآخرة].[23]

فالصحراء ذلك السحر الأسطوري الكامن في المخيال الجمعي للإنسانية عامة ، وفي الذاكرة العربية بشكل خاص ، حيث تبرز الصحراء في الوعي ، والمخيلة مجمعا للنقائض منسجمة مع طبيعتها المتقلبة ، فهي لا تسكن حينًا حتى تثور ، ولا ترضى لحظة حتى تغضب ، تفرح فيتحول الكون إلى مسرح شعري رائع ، وتغضب فيكون في غضبها الهلاك والشقاء.

- مما سبق ومن خلال سردنا للتعاريف اللغوية والاصطلاحية نستنتج أن لفظ الصحراء يدل على التيه والقفر والجفاف حيث الحر والظمأ وأخطار التيه، ولسعات العقارب والأفاعي، لكن لرمال الصحراء قصة تغور في عمق التاريخ ، إذ يبدو أن كل فضاء صحراوي يخفي قصة فريدة ، فالصحراء تشغل الوظائف الأساسية للأسطورة الروائية ، فهي غنية بتراثها الثقافي والأدبي والفني والإبداعي والتراثي يقول M. Roux:* تبقى القفار عذراء والجبل لا يقهر ، والبحر جموحاً لأن الثلاثة كل منها قد حافظ على نزاهة زمنه وفضائه وعليه فإن فضائها ينبسط على مد البصر ، لا حدود له وزمنها لا يعرف الانتهاء، إنها نقيض الحضارة التي تنظم وتتحكم في مقولتي العالم المادي وتشكل فضاءات تعاليمية في غاية الجودة (Des espaces initiatiques par excellence).[24]

الرواية لغة :

من روى الحديث والشعر يرويه رواية وتراواه،ويقال روى فلان شعراً إذا رواه له حفظة للرواية عنه قال الجوهري ، رويت الحديث والشعر تروية رواية فأنا راو في الماء والشعر من قوم رواة ورويته الشعر تروية أي حملته على روايته وأرويته أيضا وتقول أنشد القصيدة يا هذا ، ولا تقل أرويها ، إلا أن تأمره بروايتها ، أي استظهارها.[25]

وجاء في مختار الصحاح (روى) : الأروية بالضّم والكسر الأنثى من الوعول وثلاث (أراويّ)على أفاعيل فإذا كثرت فهي (الأروى)على أفعل بغير قياس (وأروى) ، أيضا اسم امرأة، والريان ضد العطشان والمرأة (ريا وريان)، اسم جبل ببلاد عامر.

والرواية ، التفكر في الأمر جرت في كلامهم غير مهموزة وروى الماء بالكسر ،روى بوزن رفا وريّا بكسر الراء وفتحها (وارتوى وتروى) وروى الحديث والشعر يروي بالكسر رواية فهو راو في الشعر والماء الحديث من قوم (رواة وروّاة)الشعر تروية وأرواه أيضا حمله على روايته . (والرّواية)البعير والبغل والحمار الذي تسقى عليها .[26]

---

[23]- التبر، ابراهيم الكوني ، رياض ، اليس للكتب والنشر ، لندن ، سبتمبر 1990 ص : 127 .

[24] M. Roux, op, cit, p.14.

[25]- لسان العرب، ابن منظور ص 1262.

[26]- مختا الصحاح ،للرازي ص ،ص 264-265 .

أما الرواية في الاصطلاح:فهي فن من الفنون النثرية ، موضوعية أو ذاتية ، تستعير معمارها من بنية المجتمع ، وتفسح مكاناً لتتعايش فيه الأنواع والأساليب .[27]

وحين نعود إلى القواميس العربية لتحديد مفهوم الرواية نجد أنّ هذه اللفظة تدل على التفكير في الأمر ، وتدل على نقل الماء وأخذه كما تدل على نقل الخبر واستظهاره ، فالمدلولات المشتركة للرواية تفيد في مجموعها عملية الانتقال والجريان والارتواء المادي الماء أو الروحي النصوص والأخبار وكلا النوعين ذا أهمية في حياة العربي ، فكانت رواية الشعر الضرورة اللازمة لكل شاعر ، كما كانت الرواية الوسيلة الأولى لحفظ الأشعار والأخبار والسير.[28]

مما سبق يمكن القول بأن للرواية بعدين ، أحدهما أفقي يشير إلى السيرورة الزمنية ، أو الفترة الزمنية للرواية ، والآخر عمودي يشير إلى المجال المكاني التي تدور وتجرى فيه الأحداث عن طريق التحام السرد والوصف الذي تنشأ فيه فضاء الرواية .

الرواية هي تلك القصة الخيالية و النثرية الطويلة ، وهي أكثر انتشاراً وشهرة من فنون الأدب النثري ، تتميز بالتشويق في الأمور والمواضيع والقضايا المختلفة سواء كانت أخلاقية أو اجتماعية او فلسفية ، وبعضها يتحدث عن الإصلاح واظهار غير الألوف أو يكون هدف الرواية الضحك والترفيه .

لقد استوعبت الرواية الجزائرية مشكلات المجتمع الجزائري الشائكة ، وقامت برسم ملامح ومعالم المشهد الجزائري بكل أبعاده ، كما حوت طموح الإنسان الصحراوي وآماله وآلامه ، وصورت الوقائع والأحداث والتغيرات على مختلف الأصعدة ، وبهذا الصنيع رافقها من ظهور الفن الروائي في الجزائر سواء المكتوب بالعربية أو الفرنسية.

---

[27] -أبحاث في الرواية العربية ، صالح مفقودة ،مخبر أبحاث في اللغة جامعة محمد خيضر بسكرة ص15.

[28]-بناء الرواية ،سيزا قاسم، دار التنوير للطباعة والشر،(دط)،1985 ،ص102

المبحث الأول : تجليات عالم الصحراء

قبل ولوجنا لفضاء رواية اعترافات اسكرام ،حرّي بنا أن نحاول استنطاق بعض الروايات الجزائرية التي حفلت بالفضاء الصحراوي ، واستلهمت منه في بناء المعمار الفني لرواياتها فاتخذت الصحراء فضاء معمارياً ،وسنحاول بسط القول في رواية مملكة الزيوان "للحاج أحمد الصديق" ورواية أعوذ بالله "للسعيد بوطاجين وغيرها.

يمكن القول: إن عوالم الصحراء برسومها، ورموزها ، وما يندفن بين رمالها وينكشف بين خيوط شمسها مثل أيقونة استلهم منها الروائيون ، وراحوا ينفثون أقلامهم شطر عوالم الصحراء ، وجمالها وصفاتها وهو ما نتلمسه في رواية مملكة الزيوان .

1- **مملكة الزيوان:** من خلال تصفحنا لرواية مملكة الزيوان للروائي الصديق الحاج أحمد[29] يتبادر إلى أذهاننا أن الرّاوي يروي لنا تاريخاً للمنطقة التي تنشأ ، وترعرع فيها ، ومن ثم يتداخل لدى القارئ مفهوم السيرة والتاريخ ، وبهذا تحقق غاية تاريخية لتجليات عالم الصحراء في مملكة الزيوان.

تكررت كلمة الزيوان في هذا المتن الروائي السردي مما يؤشر على احتلالها موقعاً بؤرياً في بنية النص السّردي ، وسيطرة حمولتها الدلالية على فكر الروائي ، فيتوجه لها القارئ ليتلقف النص مستكشفاً لخباياه وزواياه المتعتّمة ، ومن أهم العوالم التي أتيح في هذا التحليل:

- **العالم الإنساني :**

الإنسان هو محور النّص السّردي الرّوائي وهو المحرك للأحداث والعنصر الفاعل في كل التّطورات التي تحدث في المجتمع ومن الشخصيات البارزة في النص السّردي شخصية المرابط وهو الراوي، شخصية الأم والأب والأخت والعمة.....

- الوصف في الرواية : الوصف من العوامل المهّمة في إبراز المكان وتحديده وهي لحظات متقطعة تتناوب في الظهور مع السرد ، وإذا كان السرد يشكل أداة الحركة الزمنية في الحكي فإن الوصف هو أداة تشكل صور للمكان ، ولذلك يكون للرواية بعدان ، أحدهما أفقي يشير إلى السيرورة الزمنية ، والآخر عمودي ليشير إلى المجال المكاني الذي تجري فيه الأحداث، وعن طريق التحام السرد والوصف ينشأ فضاء الرواية.

فالوصف من أهم الأساليب في تجسيد المكان، فهو يعني "نظاماً أو نسقًا من الرموز والقواعد، يستعمل لتمثيل العبارات وتصوير الشخصيات، أو مجموع العمليات التي يقوم بها المؤلف لتأسيس روايته الفنية[30]، فالوصف وسيلة من

---

29 الحاج أحمد الصديق:روائي جزائري مولود في 19 ديسمبر 1967 ، بزاوية الشيخ المغيلي، ولاية أدرار من أعماله: التاريخ الثقافي لإقليم توات ،الشيخ محمد بن باي الكنتي وغيرها.

وسائل التي يستعين بها الراوي في سرد الأحداث ، لكشف أحوال وهيئة الشيء الموصوف "والوصف تقنية تقترن بأسلوبي السرد الموضوعي والسرد الذاتي....، كما أن الراوي يحدد بوساطتها الاطار الزماني والمكاني للحدث، وطبائع الشخصيات ،وفي أسلوب السرد الذاتي ، يمتزج برؤى الشخصية وبتناغم مع حالاتها النفسية."[31]

- تنطلق أحداث رواية مملكة الزيوان ، من اليوم الذي ولد فيه المرابط ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن المعلمين وأوصافهم وحال المدرسة ، ثم انتقل إلى الحياة العاطفية ،وقد سرد في الرواية عن أوصاف الزوجة وأصلها.....

وقد اتسمت طبيعة السرد في الرواية بالوصف الدقيق والتوصيف كان هو السمة الغالبة على الرواية والسرد، فقد كان التوصيف موجه للشخوص والمدارس والسّكن والطرقات.[32]

أما لغة الرواية السردية فقد اتسمت با لروعة و التناسق والتناغم والتماسك والجمال، وقد تميزت اللغة السردية بالا نعتاق والانفتاح والتحرر والأريحية من القيود بالاضافة والتجديد الزمان ،تعطي الرواية الفترة ما بين القديم والحديث إلى عصرنا هذا وقد وردت في الرواية تنوعات زمنية منها الارتداد والاستباق.

المكان:وذلك من قول الكاتب فضاء السباخ ،المدرسة، الزقاق، البيت، فضاء البلدية.

الأشخاص:المرابط، العمة نفوسة ،قاموا وابنها الداعلي ، المعلم البشاري ، ومن الفضاءات الواردة في الرواية نذكر (فضاء البلدية ‘فضاء ادرار) .

تراث البنية المحلية في رواية مملكة الزيوان:

تحتل الصحراء حيزا كبيرا في الرواية العربية والدافع إلى ذلك هو توجه الرواية العربية في العقدين الاخيرين الى الاهتمام بالمحلية ،فقد رصد الزيواني في روايته وقصصه ،المعالم الجغرافية والحياة الاجتماعية والروحية في الصحراء التواتية ،محاولاً الكشف عن أساطيرها ورموزها ورمالها وتقاليدها وأساطيرها ومعتقداتها الدينية .....الخ

و تلتقي عملية توظيف البيئة المحلية مع عملية توظيف التراث السردي بان كلتيهما سعيتا الى تأصيل الرواية العربية فالأول عن طريق الشكل والثاني عن الحكي[33]

2- تلك المحبة للحبيب السائح :

حاول الروائي الحبيب السائح رحلة تخيلية في فضاء واقعي في عمق الصحراء الجزائرية حيث الامن والامان المفقود بفعل لغة الموت المبثوثة في كل شارع من شوارع الشمال.

---

[30] - الفضاء الروائي في الغربة،ص25

[31] - المرجع نفسه ص 27.

[32] - شعرية الفضاء الصحراوي ‘ مقاربة في رواية مملكة الزيوان، فاطمة قاسمي ص25

[33] -المرجع السابق، ص26

وقد حاول الروائي من خلال سرد روايته بإبراز معاناة رقيق الصحراء ، فطريقة التصوير التي انتهجتها "أم بليلو" أضفت على طبقة الرقيق طابعا مأساويا وصورت المعاناة التي تحملتها هاته الطبقة في تشييد القصور، وإضفاء صفة الحياة على الفيافي والقفار التي تحولت بجهدهم وعرقهم ودمائهم إلى واحات وجنات خضراء على امتداد البصر.

فالسارد في رواية تلك المحبة هو سارد خفي أو غير مندخل أو سارد غير درامي فالسارد يصف الوقائع بدون ان يتدخل الا حين تملي الضرورة ذلك اذ بنطق السارد شخصية بليلة :سارد غير درامي فالسارد يصف الوقائع بدون ان يتدخل الا حين تملي الضرورة ذلك اذ بنطق السارد شخصية بليلة :سارد غير درامي فالسارد يصف الوقائع بدون ان يتدخل الا حين تملي الضرورة ذلك اذ بنطق السارد شخصية بليلة :"بأسرار أفضى له بها سيده حول الفقاقير ومن فقّرها؟ سمعت السيد يقول في ليلة ضيقة....."[34].

من خلال هذه النصوص يتبين للمتلقي مدى معاناة أولئك الرقيق الذين طوعوا الصحراء وحولوها إلى واحات غناء تضم بساتين النخيل الوارفة الظلال والبساتين الوافرة الغلال، فالرواية تعد من الأعمال الأدبية الأساسية التي ركزت على ملامح الصحراء باعتبارها مكانا حافلا بالعمق والرؤية والصفاء والصدق.

3 – "رواية أعوذ بالله للسعيد بوطاجين ":

الصحراء في سرد السعيد بوطاجين[35] قضية وملجأ ، قضية من حيث دفاع الكاتب الشرس عن الحق في الوجود والموجود للصحراء والصحراويين ، وملجأ من حيث هروب السارد إليها من لفح الحقد والنميمة والظلم العابر للقارات. وبوطاجين يهيئك منذ البداية للافتتاح بسبب توجهه السردي نحو الصحراء يقول (قبل أن أتي إلى هنا لماذا أتيت ؟ كانت لي أجوبة مهمة أجوبة طويلة قادرة على الإحاطة بجمهورية من الخنازير والسياسيين)[36]

إن السبب المعرفي الذي يذكره الكاتب ليبرر به زيارته للصحراء، ليست السبب الوحيد ولا الرئيس .وهو سبب مراوغ يتجاوز حدود الحج والزهد واكتشاف الجغرافيا.

جاء بوطاجين إلى الصحراء مستنصرا وطالبا العون في فك ألغاز الشمال وانشطاره وضياعه، بحثا عن ترياق لسعار من ظلموه وأخرجوه ثالث ثلاثة ورابعهم دليلهم "وهكذا جئت إلى هنا بحثا عن حقيقتي الذاتية وعن حجج أخرى بلغني أنها مدفونة في العين ،في جهات غامضة ،في المقبرة وفي ضريح أسعد وفي الرمل وفي ذاكرة النخيل في ألم

---

[34] أعمال الملتقى الوطني الثالث للكتابة السردية(السرد والصحراء)، دار الثقافة لولاية أدرار، أيام 01 إلى 03 ديسمبر2013 ،الجزائر،دار فيسرا ص105

[35] سعيد بوطاجين: من مواليد تاكسنة جيجل ، أستاذ بالجامعة منذ سنة 1982 ولد في 1958/01/06 بالجزائر متزوج وأب لثلاثة أطفال من أهم أعماله: الاشتغال العاملي، دراسة سيميائية لرواية غذا يوم جديد ، وفاة الرجل الميت وغيرها.

[36] المرجع نفسه ص32.

الناس وفي مشاعرهم وشعورهم وأشعارهم الخبيئة"[37] فالصحراء وحدها من يظهر الحواس ويعيد تحيينها إلى وضعها الأول من الصفاء النقاء، الصحراء مهد اللغة الأول الذي لاتصفوا اللغة من دياثتها الا بالعودة اليه والاغتسال في محرابه .

صحراء بوطاجين هي من يمتص غرور الشمال ومدنه ويفضح فاقته وجهله ،هذا الجهل الذي ارق بوطاجين فقرر البحث عن الحقيقة وذلك من قوله:"صحيح جئت إلى هنا للبحث عن حقيقة فشعب المخطوط إلى مخطوطات طاردتني براميل النفط إلى هنا .....كنت ابحث عن نفسي في بكاء الرمل في الآثار.....[38].

4- رواية تيميمون لرشيد بوجدرة :

يتميز فضاء الصحراء كما شخصه وعرضه رشيد بوجدرة في رواية تيميمون من خلال سجلات هدا الفضاء،التي اعتنت أكثر بتدوين هدا الفضاء الصحراوي من خلال عيني سائح متجول، وليس من خلال عيني دليل سياحي ، فالدليل لابد أن يتوفر على معرفة بهذا العالم يعضدها مخيال صحراوي .

وفي رواية تيميمون نجد فضاءاً صحراوياً يحاول الراوي أن يؤثثه دو مقاطع وصفية، اد يعيش داخله تجربة خارقة شبيهة بالتجارب الباطنية ، إذ كان صاحياً ومدركا لحدود العالم الذي يلجه رفقة معشوقته ويعود بدونها ، ولذلك كانت عنايته بما هو مرئي ومتجلي في عالم الصحراء طلبا للفرجة والمتعة والمعرفة ،وقد احتلت تيميمون بقصرها البربري ونظام السقي بالفقارات ومشاهدة الطبيعة ونظامها المعياري مركز الرؤية .[39]

ولم تكد عين الراوي أن يتجاوزها لغيرها من عالم الصحراء ،إنما يعوزنا في صحراء بوجدرة هو المخيال الصحراوي الذي يشكل روح هدا الفضاء العاري ،والمنبسط إلى حد الاختفاء والضياع ،والتيه ، هدا الفضاء الشبيه بالا بدية الذي يضيع فيها ويتلاشى بالزمان والمكان ، والتي لايجد فيها الإنسان من بد ، سوى أن يتوحد معها ويقاومها .[40]

إذن من خلال تصفحنا لهاته النصوص الروائية تنكشف لنا عوالم رحبة للعالم الصحراوي المترامي الأطراف ، بحكم جاذبيته وروائع طقوسه وعاداته وتقاليده الساحرة الأسرة وكذا مكوناته الجمالية من رمال ونبات وحيوان.

فالرواية لاتصف البيئة الصحراوية فحسب بل تعني الحياة الاجتماعية والروحية للناس فتعرض حياتهم ومعتقداتهم الموروثة والمقدسة.

---

[37] رواية أعود بالله ، سعيد بوطاجين ، دار الأمل ، الجزائر 2006 ،ط1 ،ص167.

[38] – المرجع السابق ص 180.

39 – الفضاء السيري وتداعيات الصوت الراوي في رواية تميميون لرشيد بوجدرة ، الطاهر رواينيية ، دار الاجتهاد ، الجزائر 1994 ص:58 –59 .

40 – المرجع السابق ص : 59 .

المبحث الثاني: قراءة وصفية للرواية

ـ بين يدي رواية اعترافات اسكرام :

حري بنا قبل أن نعرّف بالرواية أن نعرّف ،ولو بشكل وجيز ،بصاحبها ،فمن هو الروائي عز الدين ميهوبي ؟

ولد الأديب والروائي الجزائري عز الدين ميهوبي سنة 1959 بمدينة العين الخضراء ،أو عين خضرة بالمسيلة ،تلقى تعليمه الديني الأول بالكُتاب ،والتحق بالمدرسة النظامية سنة 1967م بمدرسة عين اليقين بباتنة ،ثم انتقل إلى مدرسة السعادة ببريكة، وفي سنة 1979 التحق بالمدرسة الوطنية للفنون الجميلة [41].

تقلّد عز الدين ميهوبي عدة وظائف في الصحافة والسياسية ،حيث عُيّن رئيس المكتب الجهوي لجريدة الشعب ،وفي الفترة 1997 ـ 2002،نائبا بالبرلمان ،وفي الفترة 2013 إلى 2015 رئيساً للمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر ،وهو حالياً يشغل منصب وزير الثقافة في الحكومة الجزائرية.

تنوعت ابداعات عز الدين بين الشعر والرواية والأوبيرت والمقالات ،ففي سنة 1985م صدر له ديوان شعر عنوانه ،في البدء كان أوراس ،وفي 1979م ديوان آخر عنوانه الرباعيات ، ونص أوبيرت عنوانه سيتيفيس ،ومن رواياته رواية اعترافات تام سيتي ،ورواية اعترافات اسكرام موضوع بحثنا .

تعدّ رواية "اعترافات اسكرام "مرحلة جديدة في مسيرة الروائي "عز الدين مهيوبي " الحافلة بالعطاء الأدبي، وهي بذلك تنهض على تقديم شكل سردي حيث تتقاطع فيه الرواية مع الفضاء الصحراوي وهي من هذا المنحنى تعد إضافة جديدة في العالم الروائي.

وتكمن أهمية الرواية في كونها واحدة من الروايات التي نمت بوعي المبدع ودرايته بجماليات الرواية،وملامحه العصرية، والتي يحاول فيها الروائي سبر أغوار المستقبل ،ومحاولة استكناه خباياه وخفاياه، وفيه تطل الذات اطلالة زمنية ومكانية على مساحات صحراوية وتمر بمحطات متنوعة يتشابك فيها الماضي مع الحاضر والمستقبل ، وقد تنوعت الرواية على تنوعات زمنية منها الارتداد والاستباق ، فالارتداد هو ان يرجع الكاتب الى إحداث ماضية، والاستباق وهو ورود أحداث في الرواية تخص المستقبل وسمي كذلك بالاستنزاف والرواية "اعترافات اسكرام"حبلى بالاستباقات الزمنية بمثل التواريخ الافتراضية:{2030,2039,2040 }[42]هذا ماادى الى نسج روائي وسرد حكائي متماسكين ومتلاحمين بعيد عن التتابع الزمني والتسلسل المنطقي للأحداث ،ولا يكتفي الكاتب فيها بعرض مشاهد ماضيه في شكل تسجيل سردي ، وانما يطرحه في سباق روائي جديد محاولا اكتشافه من جديد.

– ملخص الرواية:

41 . هناك ترجمة وافية في ويكبيديا على الشابكة ،يمكن العودة إليها.

42 – الرواية ص :27-28.

- يحيل العنوان على ملفوظين هما: اعترافات (confessions) وأسكرام (askhram)، أما الأول فإنه نابع من الذات في حالة الإقرار بالذنب ، أو ما ينسب للنفس وتنكره ثم تعود للاعتراف ، وغالباً ما يكون في الجرائم والأخطاء ، وثم حالة صفاء وتأنيب الضمير .

- الاسكرام : مكان جغرافي معلوم ، وهو أحد سلسلة جبال الهقار الشاهقة ، تقع في أقصى الجنوب الشرقي للجزائر بولاية تمنراست ، وهي منطقة معروفة عالمياً بمناظرها الخلابة ، وسحرها الجذاب ، ويمكن مشاهدة أجمل شروق وغروب للشمس في الجزائر والعالم كله ، ويعتبر جبل اسكرام مقصداً مهماً للسياح ، وهو من أهم معالم السياحة في الجزائر .

والأهقار هي العاصمة الكبرى لمجتمع الأموهاغ ، وموطن أسطورتهم الملكة (تين هينان) هده المرأة الأسطورية التي حكمتهم إبان القرن الخامس ميلادي وتميزت بمؤهلات قيادية تنبئ عن الحكمة والرأي السديد والحنكة في إدارة أمور ممتلكاتها ، والقدرة على حمايتها من الأعداء فاستحقت بدلك الخلود والرمزية

– إن المرأة التارقية تمتلك خاصية التفرد والتميز بلباسها الأزرق الفضفاض وإصباغها المزمرة بالنيلي والطاري ، هدا ما يبرز مدى تمسكها بعاداتها وتقاليدها المتوارثة

والرواية كانت غنية باللهجة التارقية ، فاللغة التارقية هي الوحيدة من بين اللهجات الأمازيغية التي حافظت على جذورها الأمازيغية ، كما يفيد محمد شفيق في معجمه الأمازيغي " الطوارق هم الشعب الأمازيغي الوحيد الذي حافظ على أبجدية تيفيناغ[43]

– تدور أحداث الرواية من فندق اسكرام بالاس الذي يملكه رجل الأعمال الألماني يدعى هوسمان ، بناه في منطقة الأهقار وطن الطوارق تخليداً للراهب الفرنسي شارل دي فوكو ، حيث يقرر أن يقيم خلال رأس السنة والتي تصادف 2040 ، حفل اعتراف لرواد الفندق فيقع الاختيار على شاعر كوبي كان معتقلاً في زمن كاسترو ، ويكتشف زيف أمريكا بعد خروجه من السّجن ، وفنان تشكيلي قتلت خطيبته في تفجيرات 11 مارس 2004 ، فيقرر تفجير الكعبة انتقاماً من المسلمين ، وفلسطيني يلتحق بصفوف القاعدة بثوار بورا (أفغانستان) وينتهي به المطاف في غوانتنامو ويابانية تتحدث عن باحث جغرافي هاجسه الماء لكنه يستعيد انتحار يوكيو ميشيما ، واطلاق القنبلة الذرية على هيروشيما ، وتنتهي الاعترافات بحريق يأتي على الفندق يتبين أن سببه هو مالكه الذي يريد بعلته

[43] – بيان في لغة اللاهوت، إبراهيم الكوني ' أوطان الأرباب ،ج1 ،ص 10- 11

الانتقام من الطوارق44 الذي قتلوا الأب دي فوكو سنة 1916 ، غير أن الاعترافات تكون مسبوقة بالراوي الأصلي ، وصور رجل مطافئ يعثر على مخطوط لسائح فرنسي انطوان مالو يموت اختناقاً أثناء حريق الفندق ، وفيه يسرد رواية عائلته وأبيه الذي قتل في حرب الجزائر .

وكيف أنه جاء يبحث عن قبره، وتتضمن الرواية أيضاً سيرة الراوي الأصلي ، وقصة حبّه للتارقية تين أمود .

- الرواية هي من النموذج الذي يطلق عليه الرواية المتفرع عنها روايات داخلية ، تصب كلها في التحولات التي عاشها ويعيشها العالم العربي ، فهي بإيجاز رواية عولمة تجمع الشعر بالأسطورة بالعالم وبالتاريخ وبالسياسة والفن .... ، ترتكز على السرد والحوار وتمزج بين المعلومة الصحيحة والتنبؤ الذكي، تقع الرواية على حوالي 600 صفحة تتوزع على 6 فصول وهي:

- تين أمود/ عين الزانة/ الشّاعر والجدران/ الفجيعة على أستار الكعبة / قديس الماء الأبيض / رماد النبي الأخير

- أسلوب السرد في الرواية :

- من خلال دراستنا للرواية ، استوقفتنا العتبة (seuil) الأم ،أم العتبة النواة المتمثلة في العلامات المكبرة خطيا ودلالياً للعنوان اللغوي –اعترافات اسكرام- ، وهي علامة الصورة المرئية المتفحمّة التي سكنت في فضاء الواجهة الأمامية لهذه الرواية .

وإذا كانت تعيين الفضاء المكاني للرواية فقد تحققت في لفظ الجملة الإسمية في عتبة اعترافات اسكرام فإن تحديد الملفوظ فيها بتم على نحو انزياحي غير متوقع ، وذلك لأن المعتاد في سلوك لفظ المسند الأول & اعترافات& يحيل على ملفوظ الإنسان العيني، المتعين في مقام الارتياب والمساءلة الإرادية التلقائية أو الإكراهية الموجهة كأن تقول مثلا *اعترافات المذنب* أو *اعترافات المتّهم * ، إلا أن تعيين المسند بالمسند إليه المكاني يعدل وجهة المتلقي ويضعه في سياق الإغراء .بحالة فك لغز أعقدة أو احتباس كونية شاهدا تباثها ومشهودها

فالمدرك المكاني الجاذب يتمثل في شخصية فندق اسكرام بالاس الذي تحول من مجرد علامة اشهار سياحي لاستقطاب حشود الوافدين عليه من الشمال بحثاً عن الدفيء والصفاء ،والإشباع الروحي المفتقد إلى مرصد مركزي

---

44 – الطوارق: "هم الشعب الذي يستوطن الصحراء الكبرى في جنوب الجزائر ،وأزواد شمال مالي وشمال النيجر وشمال بوركينافاسو ، والطوارق مسلمون سينيون مالكيون ويتحدثون الطارقية بلهجاتها الثلاث تماجق، وتماشق ،وتماهق."عمر الأنصاري، الطوارق الرجال الزرق ،دار الساقي ،ص34.

للكون، في فضاء أعالي تمنراست بوابة أسرار الكون في عالم الصحراء المترامي ، ومصدر الثروات المادية الكبرى ، وذرة أقاصي الجنوب الجزائري .

كما أن الزمن الذي تؤطره فضاء العتبة في الرواية زمن متأزم ، فهو زمن مشحون بالتوتر والقلق والاضطراب ،وطرح الأسئلة المصيرية ،والفضاء العام في النماذج الروائية المختارة لا تخلو من فضاء العتبة ، ولا توجد رواية تخلو من هذا الفضاء ، فالشخصيات والأحداث لا تتحرك إلى في الفضاء.

الّرواية كلّها تقوم على تجريب المنطق الافتراضي ، لأن الروائي اتخذ هذا الفضاء الكوني الذي يشعر فيه بالتّوحد والاتحاد ، كرسي اعتراف ، ومنصة مساءلة للجنوب المهّمش ، الضّحية ، المتجذر للشمال الممركز الغازي ، المستغل الذي لم تقتصر شهوة طبائع الاستبداد المتأصلة على تجريب أحداث وأبشع مبتكرات مصانع الإبادة المادية ، وإنما تجاوزتها إلى إحراق وتسميم ومسخ الحياة الكونية الطبيعية .

ومن العتبات (seuils) الداخلية المتفرعة ، في الرواية القائمة على آلية –الفصل والوصل– والذي تعد من أهم مكونات السرد الإطاري وتتمثل هاته العتبات المتصلة والمنفصلة في :

1- تين أمود (ص65 إلى ص117).

2- عين الزانة (ص 119 إلى ص 258).

3- الشاعر والجدران (ص 259 إلى ص 358).[45]

4- الفجيعة على أستار الكعبة (ص259 إلى ص 442).

5- تورا بورا (ص443 إلى ص484).

6- قديس الماء الأبدي (ص 531 إلى ص 584).

7- رماد النبي الأخير (ص584 إلى 587).[46]

فالعنوان السّابع جاء لاختراق شخصية (أودلف هوسمان) الألماني الذي أنشأ فندق اسكرام ، محبة رماد نبيه الملهم (شارل دي فوكو) دفين تمنراست.

---

45 – اعترافات اسكرام ، عز الدين مهيوبي (مص–سا) جمعية البيت للثقافة والفنون – منشورات البيت 2008،ص ،ص 05- 587

46 – المرجع السابق ص 587.

فالعتبات (seuils) كلها في اشباع وعي المتلقي بتقصيه الذاكرة في هذه الرواية فمن الناحية المعجمية نجدها مفرغة من الإفادة المتعينة في ظاهر اللّفظ؛ ولذلك جاءت أشبه ما تكون باللاّفتات الصّماء التي تستفز وعي المتلقي بما لا تقوله .

أما من حيث البناء الموضوعي نجد أنّها جميعاً تتكامل في هيكلة ومحورة النّص الروائي كله ، مما يجعل البنية السردية لها وللنص الروائي أكثر انتظاماً في تقنية السرد الإطاري التي تترابط فيه المكونات السردية ، ترابط يقوم على الفصل والوصل في آن واحد .

الرواية تتكون من ستة عتبات ، تمثل كل واحدة منها لوحة أو لافتة إطارية لمؤطرات سردية تتوالد مع بعضها على نحو منفصل يجعلها تمتلك ملمح رواية افتراضية قائمة بذاتها .[47]

– أما من حيث الدلالة الزّمنية فتجدها أكثر توسيعاً وتكثيفاً واستشراقاً في الرّواية ، ومنها عتبة افتتاحية الرّواية *تين أمود* الشخصية النّسائية التّارقية الشّابة ، التي افتتن بها الجميع ، واستعصت على الجميع ب : 112 ص، وكذا عتبة *عين الزانة* الذاكرة المكانية الحية التي جاءت شاهد اثبات تاريخي وجغرافي مفتوح الفضاءات ب: 139 ص ، وأوسطها عتبة *الشاعر والجدران* ، التي تتوالد منها تناسلات إشكالية الحرية والالتزام والإلزام ، أي بين الضرورة الإيديولوجية المغلقة للثورة الكونية ، وبين إرادة اختيار حرية التعبير ب: 99 ص وعتبة * على أستار الكعبة* ، التي تنتظم مؤطرتها السردية في ذاكرة التدافع أو التنازع الايديولوجي (الكوني) القديم والجديد بين الإسلام والمسيحية ب83 ص ، وعتبة *تورا بورا* ، المؤسسة تأسيساً إشهارياً 48.

إذ يمثل الإرهاب ،وما أنتجه من دّمار وعبث في الشّمال ، وسوقت ووظفت في الجنوب ليخرق بها العالم كله جنوباً وشمالاً ب 87 ص وأصغرها عتبة *قديس الماء الأبدي*، التي تشي بمخيل نهاية رومانسية لتوقع كوني بديل ، يمثل محو ذاكرة الموت والدّمار والتّنازع والتأسيس تجديداً لذاكرة الحياة المتّطهرة انطلاقاً من قدسية الماء التي تستحضر في مضمر هذه العتبة ، منصوص الآية الكريمة ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[49] .

إذن فكر هاته الأطر والمؤطرات الموضوعاتية تمثل في ما يفضي به الفضاء الكوني المتفحّم ، الحياة في فندق اسكرام بالاس (بتام سيتي) ، وعلى ضفافها من جهة، وائتلافها جميعاً في صيغ وآليات الخطاب الفوري المتوالد الذي يمثل قاموس (البوح) ، (الاعتراف) ،(والمكاشفة) ، وذلك منذ بداية النص الروائي (ربما أكون ثقيلاً عليكم أنصحكم

47 – ديوان عولمة حب ، عولمة النار ، عز الدين مهيوبي منشورات أصالة الجزائر 2002 ص41– 68 .

48. مؤشرات الذاكرة الكونية في 'اعترافات أسكرام ،عثمان بدري ،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر ،2000م،ص:62

49 ـ سورة الأنبياء الآية 30.

بتحملي قليلاً.....، قررت أن أعترف هكذا رغبة مني شيء من سيرتي المختلفة)[50] من جهة ثانية يجعلها أقنعة متناوبة تتعدى كلها رؤية الاحتراق الكوني التي أفضت بها العتبة الأم (اعترافات اسكرام) ، وفاض بها الوعي الكوني المحتبس لذاكرة الشخصيات الإطارية الستة الأساس مثل ذاكرة شخصية (صالح النازا المثقلة بمآسي الاحتراق المادي والمعنوي ، وتحيل إلى الجرائم الكونية الإنسانية لفرنسا الكولونيالية في الجزائر عموماً ، وفي أقاصي جنوبها الصّحراوي خصوصاً ، وهي افتتاحية الرواية (تين أمود) .[51]

وذاكرة شخصية (انطوان مالو) الموسيقي الفرنسي ، ضحية الصندوق الأسود للتاريخ الفرنسي في الجزائر ، من خلال الفضاء المتعابر لها بين تمنراست وعين الزانة بمدينة سوق أهراس أقصى الشرق الجزائري ، ومدينة أميان الفرنسية[52].

وذاكرة شخصية الشاعر الكوبي الافتراضية (ايناسو ميغوال غارسيا) ، سليل الثورة الكوبية ،وأحد ضحاياها في الشاعر والجدران ، وذاكرة شخصية الفنان التشكيلي الاسباني (رفائيل رامون كابريرا) المثقلة بأوزار ذاكرة التنافي الايديولوجي بين سلطة التاريخ الاجتماعي والوجداني والحضاري والعقائدي ، الوافد من قلب الجزيرة العربية ، وذاكرة(أمين راشد) المدعو الأفغاني الفلسطيني المثقلة بذاكرة التقي من التاريخ والاجتثاث من الجغرافيا في تورا بورا ، ومن ثمة البديل الافتراضي ، شخصية الباحثة اليابانية في اقتصاد التنمية بدول المغرب العربي السيدة (ساديكو) التي حلّت باليابان قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية دون الانتصار لإرادة الميلاد الجديد للحياة المتطهرة ، التي تذّخرها التجاويف والمشارب الألمانية في أقاصي الصحراء الجزائرية المترامية في (قديس الماء الأبدي) .

– من خلال توغلنا في خبايا الرواية ، ودراستنا لجوانبها الداخلية ، يتراءى لنا أن المدرك السردي في الرواية كلها ، هو مكون الشخصية الروائية ، وذلك من خلال هيمنة سياق الصيغة السردية للمحكي الفوري، إلا أننا حين نمعن النظر في كيفية تناسل وتوالد محكي الكلام ، نجد أنه وفق من الناحية الجمالية من خلال خلق الشخصيات ، وبقاءها رهينة مادتها المرجعية الخام.

ويبرز في محكي الكلام كذلك ملمح شعرية الكون السردي ، من خلال افتتاحية الرواية عامة والحيز المتعلق بشخصية "تين أمود" الدرامية خاصة ، دلك الحيز الذي يبدو متخماً بنصوص شعرية متنوعة تتحول فيها بؤر اهتمام المتلقي من التعاطي السردي الديناميكي إلى التعاطي الشعري الكوني ، وهدا وتبدو البنية الإطارية لمحمل النص الروائي افتراضية إستشراقية هادئة يمثل القاص فيها روايا والقارئ مرويًا له ، والرواية اعترافا عاما تتخلله اعترافات خاصة يقف

---

50 الرواية ص05.

51- المصدر نفسه ص 128.

4- المصدر نفسه ص149/121.

الكاتب في خفية زمنية ما يتأمل التاريخ ، ويرصد الواقع ، ويستشرق المستقبل ، يلملم شتات الوقائع والأمثلة ليجعلها تختمر ، ثم يسكبها حبرًا في بوتقة أوراقه شاهداً على عصر العولمة .

- ***الشخصيات والأحداث***: (personnalité):

1- تعريف الشخصية الروائية:

وردفي معجم مصطلحات نقد الرواية "أن الشخصية هي كل مشارك في أحداث الحكاية سلباً أو إيجابا ، والدي لا يشارك في الحدث لا يمكن أن يمثل شخصية ، وإنما سيجعله قسماً من الوصف" [53]

فالشخصية الروائية ليست وجوداً واقعياً، وإنما هي مفهوم تخييلي، تدل عليه التعبيرات المستخدمة في الرواية. هكذا تتجسد الشخصية الروائية، لتتخذ شكلاً دالاً من خلال اللغة ، وهي ليست أكثر من قضية لسانية ، حسب تودوروف.

وتعد الشخصية الروائية أهم مكونات أي عمل حكائي ، ودلك لأنها تمثل النواة التي تجمع مختلف الأفعال المرتبطة في مجريات الحكاية ، وجعلها محطة ذات أهمية قصوى لدى المهتمين والمنشغلين بأنواع الحكايات المختلفة [54]

وينبغي التمييز بين (الشخصية الروائية)،(والشخص الروائي): فالأولى عامة لها قوانين وأنظمة تقننها وتقعدها، والثانية خاصة تعني شخصاً معيناً في رواية معينة، له سماته الخاصة ، وصفاته النفسية والجسمية المحددة. ومع دلك فكلتاهما تتلامسان. تلامس الخاص ضمن العام.[55]

فمن المفاهيم الأساسية المكونة للتجربة النقدية المعاصرة في مجال الرواية نجد مفهوم الشخصية، وقد تناول الباحث (حسن البحراوي) في عمله الموسوم ب:" بنية الشكل الروائي"[56] مفهوم الشخصية في المرجعية الغربية قبل أن يقارب طبيعة الشخصية في الرواية العربية ، ويتناول مختلف المشاكل المنهجية والنظرية التي يثيرها هدا المفهوم في التحليل ، ومادام مفهوم الشخصية من المفاهيم المركزية ، فلا بد من تقديم تصور نظري يحدد الطبيعة النظرية للشخصية ، وعلاقتها بالمفاهيم المجاورة المكونة للنسيج النظري للرواية، فالشخصية هي أول مكون يجده القارئ في النص الروائي، وآخر ما يودعه في الرواية.

---

[53] - معجم مصطلحات نقد الرواية ، لطيف زيتوني ، دار النهار للنشر ،ط2002 ،ص ،ص 113-114

54 – جماليات الصحراء في الرواية العربية ، وليد بن حمد الدهلي ، دار جرير، (ط1) 1434- 2013 ص 19

55 شعرية الخطاب السردي ،محمد عزام،منشورات اتحاد الكتاب العربي ،دمشق (دط)،2005 ص11.

56 – بنية الشكل الروائي ،حسن بحراوي،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء المغرب،(ط 2) 2009 ص. 201

إن كل الأبحاث التي كانت قبل "بأختين" كان هدفها فهم العلاقة بين الشخصية والعالم، وهي العلاقة التي تسيء إلى مفهوم الشخصية التي بقيت حبيسة الواقع ، وحبيسة الاختزال السيكولوجي " فاختزال الشخصية إلى محتواها السيكولوجي أمر لا مبرر له، لأن أهمية الشخصية مالا تأتي تعقيدها وكثافتها السيكولوجية."[57]

وقد وضع النقد التقليدي القديم الشخصية في ورطة ،حيث نظر إليها كما لو كانت خلاصة من التجارب المعاشة ، إضافة إلى الخلط بين المؤلف والراوي ، لكن مع ظهور النقد الجديد ، أصبحت قضية الشخصية قضية لسانية ، "فالشخصيات لا وجود لها خارج الكلمات لأنها ليست سوى كائنات على ورق." 58

وللشخصية تصنيفات أهمها: شخصيات سكونيه لا تتغير طوال السرد وشخصيات دينامية تمتاز بالتحول ، كما يتم النظر إلى شخصيات سكونيه لا تتغير طوال السرد ، فتكون شخصية رئيسية أو ثانوية.

وقد انتهى بروب فلاديمير(Propp. Vladimir)[59*] إلى تحديد سبعة مجالات لحركة الشخصية فهناك المغتصب ، والمانح ،والمساعد، والآمر ، والبطل ، المزيف.....

فالشخصية الروائية هي علاقة لغوية ملتحمة بباقي العلاقات في التركيب الروائي المحكم أو المنتج لمرسلة تجد حقيقتها في التواصل .وقد صنفها فيليب هامون (ph.Homon) إلى ثلاثة أنواع :

- 1- الشخصيات المرجعية وضمنها الشخصيات (التاريخية ، والشخصيات الأسطورية ،والمجازية والاجتماعية) .وكل هده الأنواع تميل إلى معنى ثابث تفرضه ثقافة يشارك القارئ في تشكيلها.
- 2-الشخصيات الواصلة الناطقة باسم المؤلف ، وأكثر ماتعبر عن الرواة والأدباء والفنانين.
- 3-الشخصيات المتكررة ذات الوظيفة التنظيمية : وهي التي تبشر بخير، أو تندر في الحلم...[60]

2-bakhin(m),la poétique de dostoieosqi,Ed,seuil; 1970,p282

58 - المرجع نفسه،(بنية الشكل الروائي) .

59 بروب فلاديمير : ولد بسان بستراسبورغ في 29 أبريل 1895 ، وتوفي بالمدينة نفسها في 22 اغسطس 1970 ، باحث روسي متخصص في الفن الشعبي ، ينتمي إلى المدرسة البنيوية ،من أهم كتبه : مورفولوجيا الحكاية الشعبية(1928)، الجذور للحكاية الشعبية(1946)،والقصيدة الملحمية (1928) وغيرها.

60 - شعرية الخطاب السردي ص 13.

- اختار الروائي *عز الدين مهيوبي* شخوص روايته من مختلف البيئات المحلية منها والعالمية ، لأن الشخصية تعتمد على وضوح معالمها ، وتمثل حركة سردها ، وتسهم في الكشف عن البقعة التي تعيش فيها وتتلاءم مع ظروفها النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية وحتى البيئية .

وقد تعددت الشخصيات وتنوعت في رواية اسكرام ، بحيث تخيرها الروائي بعناية ، وقصد بها دلالة محددة ، ولقد عرضت لمحة موجزة عن كل اعتراف لعلها تعين على التواصل ، إلى التأويلات المحتملة التالية ومن بينها :

1- صالح الناسا : تدرب على فن اطفاء الحرائق ، فسخّر عمره لصالح النّاس.

2- انطوان مالو: موسيقي يهوى السياحة وحب المعرفة والاكتشاف .

3- ايناسو ميغال غارسيا : شاعر متمرّد على القمع ، محب للحرية .

4- رفائيل رامون كابريرا : رسام يسعى للانتقام لتفجيرات مدريد ، ثم يتراجع عن طيشه.

5- أمين أبو راشد: المدعو الأفغاني، وصديقه الجزائري يتوبان بعد نشاطهما في الجهاد.

6- ساد يكو : تبحث في اقتصاد التنمية ، وأستاذها كوموري يعشق الماء المختبئ في الصخر الغائر وهما من اليابان .

باستثناء صالح الذي تعد مهنته فنا وتضحية من أجل الآخرين فنا آخر ، فالبقية يتميزون بروح انسانية لا عداوة فيها .

ولعلّ سبب اختياره لشخصيتين من اليابان ، فلعله يكون تعبيراً عن التّقدم العلمي والتكنولوجي .

إن هذه الشخصيات وبهذه المواصفات تبدو على نقيض من شخصيات أخرى، تجسد ثنائية الأصل والانكسار، إما بالموت أو الأبعاد وهي:

شارل دي فوكو ← جان بيار الحركي ← جد انطوان .[61] ←

وقد وصف الكاتب اعترافات ساديكو بقوله " صعدت ساديكو إلى كرسي الاعتراف بهدوء كأنها ملاك لا يلامس الأرض ، قليل من التجاعيد تطبع بشرتها البيضاء ، وابتسامة لا تفارق شفتيها الرقيقتين ، كانت ترتدي لباساً

1 - تدعيات الذاكرة وخلال التخييل (اعترافات اسكرام) ، مخلوف عامر (دط) ، ص 12 .

من حرير أبيض واحمر لمّاع ، كانت تستعيد سيرة آبائها الأولين (.....) عمّ القاعة صمت ، رفعت ساديكو رأسها ، ووزعت ابتسامتها الرقيقة على الحاضرين ، ثم عدّلت من جلستها وشرعت في الاعتراف "[62]

وتتمثل خصوصية هدا النص الروائي أساسا في قيام الشخصيات بمهمات لاتحيد عنها ، على الرغم من فضاءاتها المكانية الرحبة ، وإطاراتها الزمانية المرنة ، وحقولها الموضوعاتية المتنوعة، وهي تتناوب في أدوارها على طابور كراسي الاعتراف والبوح ، والمكاشفة ،والمساءلة .

ومن خلال الجدول التالي يتبين لنا أن الكاتب يشكل مجموعة من الشخصيات تتناول الأدوار فيما بينها حواراً وسرداً ما يحقق له نوع من الحياد ، وهذا ما يمثل عينة تؤكد مرونة الانتقال من مفرد إلى متعدد ، والقدرة على السبك والتنسيق [63].

الراوي	المروى له	الواسطة	الموضوع
صالح النازا	القارئ	المخطوط	أسرة مالو
أنطوان	صالح القارئ	المخطوط	حياته وأسرته
جون بيار	أنطوان	رسائل الأب	وجوده في الجزائر
الميلود	أنطوان	لقاء مباشر	البشير الحركي
البشير الحركي	أنطوان	لقاء مباشر	حياته وعلاقته بجون بيار
الجد	أنطوان	وصية الجد	حياة الجد
الأب	أنطوان	مذكرات الأب	حياته كعسكري في الجزائر
أنطوان	ماري روز	لقاء مباشر	العلاقة بينهما
ماري روز	أنطوان	لقاء مباشر	العلاقة بينهما
الخادمة جانيت	أنطوان	لقاء مباشر	الجد وعلاقة أبيه بأمه كاترين

62 – الرواية ص 531 .

63 المرجع السابق ص :14

وهكذا نلاحظ أن كل التصنيفات التي ميزت الرواية من خلال الصيغ أو الخطابات أو الأساليب أو أنماط الكلام، كانت ترتكز في ذلك على " الأقوال أو كلام الشخصيات..... في حين يظل الخطاب ثابتًا [64]"

[64] تحليل الخطاب الروائي ، (الزمن ، السرد ، التبئير) ، سعيد يقطين ، دار النشر ، المركز الثقافي العربي ، ط4 ، 2005 ،ص195.

نحاول في هذا الفصل التطبيقي من البحث أن نقف بين يدي الرواية موضوع الدراسة بسبر أغوار الفضاء وعوالم والمكان في ثنايا الرواية، ودواعي توظيف هذه العناصر داخل المتن الروائي .

المبحث الأول :تجليات الفضاء الصحراوي في رواية اعترافات أسكرام:

لاريب أن للفضاء دلالات وأبعاد متنوعة يروم الروائي أن ينهض عليها معماره الروائي، ويؤثث نسيجه الإبداعي بجملة من الفضاءات المتعدد ،من منطلق أن"الحيز المكاني في النص السردي هو الفضاء الذي تتحدد داخله مختلف المشاهد ، والصور ، والمناظر ، والدلالات والرموز ، التي تشكل العمود الفقري له ،فهو مسرح الأحداث ، والهواجس التي تصنعها الذاكرة التاريخية برموزها المتنوعة ، مادامت صيرورة النص سوى جزء من صيرورة الواقع ، وآليات المكان ، ماهي إلا وسيلة من الوسائل الرئيسية لرصد الواقع على مستوى السرد ."[65]

تتناول رواية (اعترافات اسكرام) سلسلة اعترافات ضمن فضاء متخيل متمثل في مدينة تمنراست عام 2040 ، وقد بنيت فيها ناطحات السحاب فازدهر عمرانها ، وصارت تضاهي كبريات مدن العالم ، والرواية عمل أدبي يحاول سارده استشراف المستقبل ، والتنبؤ بآفاق الغد المستشرق حينا والحالك أحيانا أخرى .

ولكن الرواية في مجملها مزج بين التاريخ ،والعلم، والأسطورة، والشعر، والدين، والسياسة ،والنبوءة في ، في نوع من التماهي بين كافة هده الحقول المعرفية ، والمجالات العلمية من أجل إنتاج أدبي يمثل روح العولمة .

ويبدو السارد متفائلا بمستقبل الجزائر ، وقد أطلق على مدينته الفاضلة تمنراست اسم " تام سيتي" وأعاد هيكلة عمرانها وربطها بثقافة الميترو ، وأبقى على تراث التو ارق متجذرا في معالمه وإيماءاته ، فلا غرابة أن تكون تمنراست بوابة الصحاري الشاسعة حيث يكفيها نيل قسط من التنمية لتكون وجهة مثلى للسواح الأجانب والأشقاء العرب على حد السواء .

إن بعض الرؤى الاستشرافية المبثوثة بين طيات الرواية تحققت مثل : نيل الرئيس الأمريكي " باراك أوباما" جائزة نوبل للسلام ،كما جاء في الرواية (يحتفظ أوباما بقدر من الطيبة ، لا غرابة أن يمنح جائزة نوبل للسلام اعترافا بما قدمه من خدمة للسلم ، والأمن في العالم..... كان له يد سيرلانكا والصومال وفلسطين والتحسيس بخطر السلاح النووي والتسامح الديني، وجعل التكنولوجيا في خدمة الإنسانية)[66].

---

[65]–المكان في الرواية العربية غالب هلسا :، عن كتاب الرواية العربية واقع وآفاق ، دار الرشد للطباعة والنشر ، ط1 ،(دت) ، بيروت ، ص111 .

[66]– الرواية ص : 04

وكذلك التنبؤ بنهاية "أسامة بن لادن" إد تشير الرواية إلى أن أحد أتباعه يحتفظ بوصية لزعيم القاعدة يفتحها بعد وفاته فيقرأ ما يلي (اعلموا أنني قد أموت ولا يعلم لي قبرا) [67].

من خلال دلك يتبين لنا أن انتقال مصطلح الفضاء إلى المعرفة النقدية العربية الجديدة لم يظهر إلا في السنوات الأخيرة ، وقد كان استخدامه مختلفاً من باحث لآخر ، ومن تجربة لأخرى ، فمرة يرد بلفظ الحيز ومرة بلفظ المكان ، ومرة ثالثة بلفظ الفضاء .

فالمكان له وظيفة رمزية ترتبط ارتباطاً كبيراً بالوظيفة الرمزية التي تفيد في تأكيد وتعضيد البناء الإنساني للشخصية لدى الفرد، فالخبرات المتكررة في مكان معين تساعد في تطور إحساس ما بالاستمرارية، وشعورها بالانتماء بمكان معين. [68]

وقد ذكر ابن منظور في معجمه : " أن المكان في الأصل تقدير الفعل مفعل لأنه موضع لكينونة الشيء فيه ، غير أنه لما كثر جروه في التصريف مجرى فعال فقالوا : مكنا له فقد تمكن وليس هنا بأعجب من تمسكن من المسكن والمكان الموضع والجمع الأمكنة كقدال واقدلة وأماكن جمع الجمع، قال ثعلب يبطل أن يكون مكان فعالاً لان العرب تقول : كن مكانك وقم مكانك واقعد مقعدك ، فقد دل هدا على أنه مصدر من كان أو موضع منه ، قال : وإنما جمع أمكنة فعملوا الميم الزائدة معاملة الأصلية لأن العرب تشبه الحرف بالحرف وقالوا : مكانك ؟ أي تحذره شيء من خلفه ." [69]

تعد دراسة المكان كعنصر بنائي يسهم في تشييد الرواية ضرورة لكشف ومعرفة خصائص هدا الفن ، وما يميزها من روائي إلى آخر ، ولما كانت دراستنا تتأسس منهجياً على ماقدمته الدراسات والأبحاث المختصة ، فإن اطلاعنا على البعض منها يبين لنا أن عنصر المكان لم ينفرد بدراسة خاصة تنظر له ، إنما هناك دراسات متفرقة تشغل كل منها بمصطلحات خاصة.

ولم يبق المكان في نظر الدارسين مجرد رقعة جغرافية ، فقد اكتشفوا جماليته الكامنة في الخبرة الإنسانية ، ونجد هده الصورة واضحة أكثر لدى غاستون باشلار، حينما يتحدث عن المكان وعلاقته بالإنسان { إن المكان الدي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكاناً لا مبالياً ذا أبعاد هندسية وحسب ، فهو قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي

---

[67]- الرواية ص : 05

[68]- الوعي بالمكان ودلالته في قصص محمد العمري ، شاكر عبد الحميد ،فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، العدد الثالث ،1994م ص 258 .

69- لسان العرب، لابن منظور، المجلد الرابع عشر، دار صادر بيروت، ص 113.

فقط ، بل كل ما في الخيال من تمييز ، إننا ننجذب لأنه يكثف الوجود في حدود تتسم بالجمالية في كامل الصور ، لا تكون العلاقات المتبادلة بين الخارج والألفة متوازية }.[70]

وإذا كان البعض يرى أن الفضاء هو المعادل لمفهوم المكان وأنهما مصطلحان يراد يهما المعنى نفسه ،فان الحمداني حاول التفريق بينهما وجعل المكان جزءا من الفضاء ،لان الفضاء برأيه أوسع من المكان فهو يشمل ويجمع بين عدة أمكنة "إن مجموع هذه الأمكنة هو ما يبدو منطقيا إن نطلق عليه اسم فضاء الرواية ، لان الفضاء اشمل وأوسع من معنى المكان وهذا الأخير بهذا المعنى هو مكون الفضاء ،وما دامت الأمكنة في الروايات غالبا ما تكون متعددة ومتفاوتة ، فان فضاء الرواية هو الذي يلفها جميعا انه هو العالم الواسع الذي يشمل مجموع إحداث الرواية كالمقهى والمنزل والشارع أو الساحة كل واحد منهما يعتبر مكانا محددا ،ولكن اذا كانت الرواية تشمل هذه الأشياء كلها ، فإنها جميعا تشكل فضاء الرواية إذ يسع كل هذه الأمكنة ويجمع بينهما في عمل روائي واحد حتى وان بدا إن الرواية تقدم إحداثها في مكان واحد ،فان هناك أماكن أخرى تحضر عن طريق الاستذكار وفي أذهان الشخصيات وكلها تسهم في بناء الحدث.

والفضاء وكما عرفه إبراهيم الحجري " أنه المكان الواسع الذي يجمع الأشياء ويحضن حركة الكائنات "[71]

والفضاء الصحراوي بمكوناته ، يتجسد من واقع و حقائق المجتمع الصحراوي ،وطبائعه ، وصفاته ، وغرائزه ، لدلك استلهمت الرواية من الحياة الصحراوية ودلك من خلال صور شخوصها ، ونمط العيش فيها.

فالعمل الأدبي من شأنه تصوير طبيعة الظواهر الاجتماعية المتكاملة وعدم التركيز على الظواهر الفردية المنعزلة.
[72]

فمضمون الروائي يتبلور من خلال فنيات الرواية ، وهي تتبلور ضمنه ، وهدا يعني أن هناك تفاعلا بين الشكل الفني والمضمون ، ولهدا صنفت الفنيات الروائية ،من خلال بنياتها السياسية والاجتماعية والثقافية وحتى البيئية.

-فضاءات الصحراء في رواية اعترافات أسكرام:

---

[70]- جمالية المكان ، غاستون با شلار ترجمة غالب هيليسا ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ،الطبعة السادسة ،(1427 ه – 2006 م)، ص : 31 .

[71]- شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسية ، إبراهيم الحجري ، دمشق ،دار البابا ، دار المحاكاة ، 1433 ه – 2012 م ، ص : 34 .

72- فضاء الريف في الرواية الجزائرية المعاصرة ، مداخلة أ عبد الله كروم ، جامعة أدرار ، الجزائر .

تعددت الفضاءات التي تتجلى في نص (اعترافات أسكرام) ، وتنوعت بحسب تنوع المواقف والبيئات المختلفة في السرد ، فقد قام الكاتب بنحت أمل الحرية والتحرر في الصحراء الجزائرية ، من صخر العبودية والاستعباد ، في الشمال ، ومن لبن الفضاءات المتواجدة في النص الروائي :

1 **فضاء الهوية**: يحتل المكان قيمة كبيرة في السرد، ويملك القدرة على التأثير في تصوير الأشخاص، وحبك الحوادث بين الأمكنة والشخوص، شيء دائم ومستمر في الرواية، كما هو في الحياة.

ويتحدث النص (اعترافات أسكرام)عن منطقة تمنراست التي تمثل فضاء الهوية بالنسبة للطوارق بحيث تعتبرالأهقار سحر المكان وعظمته تاريخه ضارب في أعماق الحضارة الإنسانية كما تتعالى قمم جباله الجغرافية إلى عنان السماء كما تشرق قمة جبال تاهاتاتاكور على شوامخ الجزائر وتحكي جدرياته وصخوره بدايات الإنسان الأول وهو يصارع الحياة في مجتمع الطرديات ويخفي في افقه جمال الطبيعة الذي ينكشف على روعة أجمل شروق /وغروب الشمس في العالم .

والأهقار هي العاصمة الكبرى لمجتمع الاموهاغ وموطن اسطورتهم الملكة تين هينان هذه المرأة الأسطورة التي حكمتهم إبان القرن الخامس الميلادي وتميزت بمؤهلات قيادية

والشعب الطارقي شعب مسلم من أصل سامي احتفظ بهويته الحضارية الأصلية ، والتماشق لغته الوطنية ، وحروف هده اللغة تسمى (تيفيناغ) ، تجعل منه أحد الشعوب الإفريقية النادرة التي تمتلك أبجدية ، يرجع وجودها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام تقريبا كما تشهد على دلك الكتابات ، والنقوش التي تمثل الصحراء وإفريقيا الشمالية.

واللغة الطارقية هي الوحيدة بين اللهجات الأمازيغية التي حافظت على جذورها الأمازيغية.[73]

ولم يكن للطوارق كيان سياسي حديث ، ومن الجدير ذكره هو أن الجنرال ديغول ، كان يسعى لإعطاء الصحراء الكبرى استقلالها ، بعيداً عن البلدان المجاورة ، ويكون ذلك الاستقلال تحت الحماية الفرنسية ، ويسمى باسم الطارق ، ودعا لهدا وفداً من طوارق وعرب مالي والنيجر إلى باريس ، لحضور احتفالات 14 يوليو عام 1958 [74]

والمرأة الطارقية عموما تمتلك خاصية التفرد والتميز بلباسها الأزرق الفضفاض وأصباغها المزنرة بالنيلي ،يبرزها تمسكها بعادتها وتقاليدها المتوارثة وهي تحتل مكانة مرموقة في مجتمعها البشري بمركزيته وسيادته ، والطوارق بالهقار

73- تاريخ ابن خلدون ، المجلد السادس ، دار الكتاب اللبناني ، ص ،ص : 370- 371 .

74- المرجع السابق ص: 373 .

ينتظمون في توليفة اجتماعية قبلية تخضع لرأس القبيلة ويدعى الاميتوكال أمين العقال ولعل أشهرهم الحاج موسى أق اخموك ،تومن قبله أخوه الحاج باي أخموك. [75]

وعرف مجتمع الطوارق في منطقة تمنراست عدة سلاطين تولوا مر المجتمع الطارقي، وعادة يكونون من النبلاء والطبقة العليا وينحدرون من سلالة رفيعة المكانة.

للمرأة بمجتمع الاهقار دور في الحفاظ على موروثها الوجداني فهي التي تؤدي الأغاني في حفلات التيندي وتعزف على آلة الامزاد ،ذات البعد الأسطوري والمليء بالوجد والحنين ، ويصحب عادة الغناء حركات للرقص مثل اسوات المعروفة في منطقة تمنراست، فهم مولوعون بالفن والموسيقى ، فالغناء عند الطوارق كالأكل والشرب لا يستغنون عنه .

وتمارس المرأة الطارقية ألوانا مختلفة من الفنون من بينها الشعر ،وكما جاء في الرواية غناءتين أمود في داخل النادي باللغة التارقية "

تريد لن وات دس قمقم

اسقات لحظت نسول لملم

إن تشيكا تالف تنتم

سيلكما بيني بغبار تزعم

أشقرين يوسين يسلينكم[76]

تحي تين أمود الجمهور ، ثم تهمس في أدن موزع الموسيقى القريب منها ، فيرسل إيقاعا موسيقياً ، ويشرع من في النادي في الرقص ، تغني تين أمود بصوتها الرخيم :

إهانن ننغ .....اهاننناون

اهانن ننغ.....اهاننناسن

وادغ تلمظ ...آر نقيمن

75- الطوارق عرب الصحراء ، محمد السعيد القشاط ، طرابلس ، 1987/09/01 ، ص : 151 .

76- الرواية ص : 33

تقال يخبل أرهيدمر

يتقاض الشاش ..آد يسنسر

بيناك ألهين....أهد زجر[77]

والروائي وهو يتحدث عن الطوارق ، فهو يسرد هويتهم وكينونتهم ، اد ينجذب عن المكان من داخله كشخص يعرف التفاصيل الدقيقة عنه لأنه يتحدث من داخل المكان ، وهده الهوية الاجتماعية أبرزها الروائي عندما يتحدث عن أماكن تام سيتي وطقوسها ، وتقاليدها ، وموروثوها الشعبي ، ودلك من خلال عالم الصحراء المليء بالغموض والأساطير والغرائب والعجائب والأحداث التي تحيير العقل البشري ، وقد استطاع الروائي عز الدين ميهوبي من خلال روايته أن يجسد فضاء الصحراء ، ويتكئ على موروث المجتمع التارقي ، بما فيه أساطير وعوالم تؤطرها الطلاسم ، ودفع المخاطر عن النفس البشرية .

ومن قوله في الرواية " نحن الطوارق لسنا كتلاً صخرية يزورنا الناس من كل الأمم ، ويأخدون مع جمالنا الصور التذكارية ، ويستمتعون برقصة السبيبة التي حملت معاني الخير والشر والسلم والحرب ، نعم فهم العالم أننا أرض الخصب والنماء .[78]

2 – الفضاء المغلق والفضاء المفتوح:

إن القراءة النقدية المتخصصة للعمل الروائي وملاحظة الأماكن المفتوحة والمغلقة في الرواية من شانها أن تعني الدلالات والإيحاءات بنوعيه الشخصيات وخصائصها النفسية والثقافية[79] ومن هنا جاءت عملية الجدل بين الأماكن المفتوحة والمغلقة ،فالفرد يتناوب في الانتقال بين أمكنة تشكل علبا مغلقة لأصحابها ، وبين أمكنة أخرى أكثر شساعة وانفتاحا وتفاعلا مستمرا مع الحياة ،وقد شهدت النماذج الروائية المختارة هذا الصراع الجدلي بين المكان المفتوح والمكان المغلق .

فأحداث رواية اعترافات اسكرام تدور في فضاء تام سيتي في قلب الصحراء الجزائرية ، ثم تشكل على وفق مسار الأحداث أماكن أخرى كثيرة منها المفتوح والمغلق .

77- الروية ص : 34 .

[78]- الرواية ص : 20

[79]- بنية الخطاب الروائي ، الشريف حبيلة ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط 1 (1431- 2010) ، ص :244

ا- **الفضاء المغلق:**

لعل ما يثيره هذا العنوان –الفضاء المغلق – غرابة الطرح، فرب معترض يقول: كيف فضاء ومغلق ؟ الفضاء بما يحيل عليه من رحابة وشساعة والإغلاق بما يحيل من ضيق ، والمكان المغلق هو دلك المكان الأليف ، وهو كل مكان عشنا فيه ، وشعرنا فيه بالألفة والحماية ، ويعد البيت أشد أنواع المكان ألفة يقول(غاستون باشلار) : " حين نحلم بالبيت الذي ولدنا فيه ، وبينما نحن في أحضان الاسترخاء القصوى ' ننخرط في دلك الدفء الأصلي ، في تلك المادة لفردوسنا المادي ، هدا هو المناخ الذي يعيش فيه الإنسان المحمي في داخله ، سوف نعود إلى الملامح الأمومية للبيت.[80]

ثم إن فكرة الإنغلاقية والإنفتاحية فمكان مغلق وآخر مفتوح ، مسألة نسبية تحتكم إلى زاوية النظر ،فما أراه مكانا مغلقا وعلى سبيل المثال لا الحصر(البيت السجن) يراه غيري مكانا مفتوحا .

وبهذا يصبح المكان المعادي المناوئ أليفا ومحببا، ألم يقل عز وجل على لسان سيدنا يوسف عليه السلام {قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين} [81]

ومن نماذج الفضاء التي أعطاها غاستون باشلار في فصله المعنون بجدل الداخل والخارج حيث يصرح قائلا "وضع هنري ميشو في داخلنا الخوف من الأماكن المغلقة والخوف من الأماكن المفتوحة جنبا إلى جنب ، وهو بهذا قد عول الخط الفاصل بين الداخل والخارج ، ويفعله هذا من منطق سيكولوجي حطم اليقينيات الكسولة للحد ومن الهندسية التي يسعى علماء النفس بواسطتها للتحكم بالمكان ،وحتى مجازيا لا شيء له صلة بالألفة يمكن احتجازه داخل مكان مغلق [82]

ومهما يكن فان المنزل ليس هو الميدان، والزنزانة ليست من الغرفة، لأن الزنزانة ليست مفتوحة دائما على العالم الخارجي بخلاف الغرفة، فهي دائما مفتوحة على المنزل، والمنزل على الشارع[83]

فالبيئة التي رصدتها اعترافات اسكرام تتصل في معظمها بيئة صحراوية تشكل من جبال الأهقار الشاسعة الفندق والسجن وأماكن الاحتفالات وغيرها وهي كلها فضاءات مغلقة .

---

[80]- المرجع السابق : ص 191 .

[81]- سورة يوسف : الآية 33 .

[82]المرجع السابق ص 197 - 198

[83]بنية النص السردي لحميد الحمداني ص : 72.

والفضاء المغلق في بعض مفاصله ينتمي للأوصاف الداخلية التي تطور العوالم الأكثر إنسانية وهي تدخل معه في علاقة حميمة، ومن تم فإنها تتحول إلى نافذة من خلالها تطل على عالم الشخصية الداخلي.

ولذلك نجد الراوي في فضاء الفندق اسكرام وهو يعرض الحالات النفسية والإنسانية للأبطال النص الروائي وذلك من خلال الصراعات والتلذذ بروح الانتقام والغدر، لأن الوصف الداخلي يتولاه جانب اللاشعور عكس الحديث عن الوصف الخارجي الذي يتولاه الوعي والشعور[84].

وقد صور لنا الروائي جملة من المشاهد والمشاعر الإنسانية داخل فندق اسكرام "في ربيع 2037 اختار رجل أعمال ألماني يدعى أدولف هوسمان بناء فندق قريب من قمة اسكرام الجبلية وأطلق عليها اسم (اسكرام بالاس) واختار له هندسة معمارية ،مشابهة لقمة الجبل الأسطوري ،فرأى الناس فيه تحفة معمارية، منحت الأهقار بعدا سياحيا آخر ". [85]

والفندق هو مكان في أقاصي الصحراء إذن فالصحراء بدلالتها على الفطرة والصفاء والقمة الجبلية الأسطورية لعلها أقصى مكان، وكأنه درجة أعلى في الصفاء والطهارة فضلا على أنه يبعث الهيبة والوقار.

ومن الأماكن المغلقة في الرواية نذكر الملاجئ، والمحلات، والكهوف،والخيام ودلك في قوله: (خرجوا من الملاجئ وعادوا إلى محلاتهم وكأنهم من أهل الكهف)[86]

وقوله كذلك:" كانت الخيمة مزينة بمصابيح، وألوان مختلفة، معطرة بالعنبر والبخور، بها أكثر من خمسين طاولة..... وفي فضاء الخيمة ينبعث صوت الأمزاد الذي يمنح المكان حالة من التأمل ، والرغبة في البكاء." [87]

وتتجلى أيضاً الأماكن المغلقة في الرواية بقول الراوي (... ولعل الشيء الوحيد الذي بقي من النيزك الدي شغل العالم طويلاً هو ظهور المطاعم وفنادق ومقاهي ووكالات سياحية ،كلها تحمل اسم النيزك [88]

84المرجع السابق ص 81

85الرواية ص33

86- الرواية ص : 21 .

87- الرواية ص : 60

88 - المرجع نفسه :ص 20.

فقد كان فضاء المقهى في تام سيتي ، مكاناً بارزاً في حياة المجتمع الصحراوي ، وهو يقوم بوظائف عديدة ، هو مكان يجتمع فيه الصحراويين ويتخذون منه مكاناً للعب بالأوراق ومدارسة أمور شؤون سقوط النيزك في منطقة الأهقار ، والخوض أيضاً في القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية.

وعموماً فالمقهى بمثابة مركز إعلامي تواصلي ، وقد برزت شخصية صالح النازا وهي إحدى الشخصيات الرئيسية في المتن الروائي من خلال المقهى الذي كان يتردد عليه باستمرار .

وتحدث الراوي كذلك عن فندق اسكرام الذي كان من أهم الأماكن التي كان يتردد عليه السواح من أجل مشاهدة أجمل شروق للشمس في العالم ، وكذا من أجل التجمع لنيل جائزة أحسن اعتراف .

كما تتميز بعض الفضاءات بالانغلاق والانسداد ، ويتعرف فيها الإنسان إلى سلب حريته ، وتحدد له المجالات التي تتحرك فيها ، ومن أمثلة هاته الأمكنة فضاء السجن أو فضاءات الإقامات الجبرية .

فالسجن لم يشكل حضور مكثفاً في رواية اعترافات اسكرام ، وإنما ورد على لسان بعض الشخصيات . وقد جاء الحديث عن السجن لأول مرة على لسان الكوبي الذي دخله بتهمة معادات الثورة ، ودلك في قوله { لو كنت أحسن الحساب ما كنت في هده الزنزانة }، وقوله كذلك { أحبك يا ناتاليا ولكن الزنزانة تحبني أيضاً}[89]

ومن الأمور الطريفة في الرواية ' أننا نجد حديثاً واقعياً ووصفاً دقيقا للسجن ، التي جاءت على لسان الكوبي من خلال اعترافه ، رغم أن الحديث عن فضاء السجن لم يكن حديثاً طويلاً في هده الرواية إلا أن الروائي لم يغص في أعماق جدران السجن لنقل تفاصيل يومياته.

إلا أننا نعتقد أن حديثه عن السجن، وان جاء على لسان بعض الشخصيات غير فاعلة، فهو حديث يصور بعضاً من واقع السجن، ولعل الراوي لم بغوص في أعماقه وسراديبه لأن الإنسان معرض للخطر في أي زمان ومكان.

من خلال الرواية يتميز فضاء الرواية المغلق بانفلاق شديد ، وإدارة قوانين صارمة تشبه القوانين العسكرية ، ورغم ما تتمتع به الرواية من مصادر متنوعة ، إلا أن المواطنين يعيشون ضغوطات نفسية قاسية جراء سقوط النيزك

ب – الفضاء المفتوح:

89- الرواية ص : 209 .

تتخذ الروايات في عمومها أماكن منفتحة على الطبيعة تؤطر بها للأحداث مكانياً ، وتخضع هده الأماكن لاختلاف يفرض الزمن المتحكم في شكلها الهندسي وفي صيغتها وفي أنواعها إذ تظهر فضاءات وتختفي أخرى .[90]

إن انتقال الروائي من الفضاء المغلق إلى الفضاء المفتوح ، ودعوته إلى المغلق ' هي دعوة للانتقال الدلالي بين ثنائية (المغلق – المفتوح) ، وتنوع جانب الإحساس لدى الشخصية ، فشخصية صالح النازا بطل رواية اعترافات اسكرام تظهر في فضاء واسع مفتوح في الصحراء العربية ، وهدا الانفتاح في المكان لم يقابله انفتاح في الروح ، واستقرار للنفس ، بل على العكس من ذلك ، إذ أخذت الدلالة الثانية للصحراء وهي الموت ، والفناء ، والعزلة ، والابتعاد عن كل ما عاشه في ماضيه .

وتعد الشوارع والأحياء أماكن انتقال ومرور نموذجية، فهي التي تشهد حركة الشخصيات، وتشكل مسرحاً لغدوها ورواحها، عندما تغادر أماكن إقامتها أو عملها.[91]

وبما أن الرواية تقوم أحداثها على الانتقالات المكانية بالشكل المفرط، فإن للأماكن المفتوحة، دور عظيم بوسائل تنقلاتها المختلفة.

وينتقل بنا الراوي إلى مكان أكثر انفتاحاً وهو الشارع ، وهذا الانفتاح في المكان لم يكن سبباً لانفتاح الذات والراحة النفسية ،فالشارع هو ذلك الحضن الذي يتلقف الذات المنعزلة، والمنفردة ،والضعيفة، والتائهة ،والحائرة المثقلة بهموم البشر ، ومن خلال الرواية لم يرد الحديث عن الفضاء المفتوح ، لأن الكاتب مغرم بالتعبير عن الفضاءات المغلقة في الصحراء الجزائرية ، حيث يسترسل في الكلام عن الطبيعة ، والجبال ، والنجوم ، والدروب الملتوية والمرتفعات.....

ويختار الراوي الشارع ، على أهمية استراتيجية في رواية اعترافات اسكرام ، ودلك من خلال كشفه على دينامية المدينة الصحراوية من حيث الحركة والهدوء يقول الراوي :{ يعجبني كثيراً في شوارع تام سيتي احتفاظ سكانها التو ارق بلباسهم ، ولا غرابة إن شاهدت قوافل الجمال تتنقل في الشوارع المزدحمة التي تكثر فيه الأضواء....}[92]

فالشارع في الرواية سيطرت عليه علامات الحزن العميق ، والذعر الشديد ، إذ يعلو صوت الموت عالياً مدوياً ويتلج صبح المأساة ، ويتحرك طعم اليأس من خلال سقوط النيزك ، فأفل نجم الهدوء والطمأنينة وحل زمن الصرخات

90- الرجع السابق (بنية الخطاب الرائي) ص : 224 .

91- بنية الشكل الروائي ، حسن البحراوي : ص79 .

92- الرواية ص : 09 .

والعويل، وذلك بعرضه في الصحف والمجلات وعلى شاشات التلفاز في قوله (في تلك الساحة قال لي أخي سمدات وهو يتابع شاشة التلفاز يدوي صور النيزك وهو يقترب من الأرض).93

ومن الفضاءات المفتوحة أيضاً قول الراوي (كنت أتأمل من في الساحة ، أصوات كثيرة تسمع من كل الجهات إما للبكاء أو للصلاة .....)[94]

يمكن القول إن ثنائية المغلق والمفتوح قد اتسعت في مفاصل الأحداث ، وفي هذا الإطار ظهرت بنية المغلق بوصفها بنية مهيمنة ، ولم يهتم الراوي بالمكان لذاته ، وهذا ما يجعله يضخم مكان على حساب آخر ، وعلى الرغم من أن الواقع قد يبدي مساواة بينهما بوصفهما من الكينونات الجامدة .

3 – الفضاء المقدس والمدنس:

الفضاء المقدس:

يعتبر الفضاء المقدس بأنه مقابل الدنيوي و يعرف كذلك بأنه ضد المدنس ، وهو ما يعرف بكل شيء متعال أو ما يحن ، وينجد ب إليه الإنسان ، وكذلك هو ما يرتبط بالدين ورموزه وتعبيراته فهو متنوع الثقافات والأزمنة .

والفضاء المقدس يتجلى في الرواية ، من حيث الحديث عن هاته الأماكن المقدسة ، كالمسجد والكنيسة ، بحيث يقول الراوي { بل إن اغرب ما قام به الأسواني ، إقدامه على تشييد مبنى كبير رباعي الأبواب ، على شكل هرم خوفو الأكبر ، باب وجهته الجنوب ، هو مسجد للمسلمين ، وباب ثان وجهته الشمال هو كنيسة للمسيحيين .....} 95 وكدا ذكره لعدد من الآيات القرآنية ون بينها قوله عز وجل { قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا}96

وقوله عز من قائل { أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} [97]

الفضاء المدنس :

93- الرواية ص : 14 .

94- الرواية ص : 12 .

95- الرواية ص : 12.

96- سورة التوبة الآية 51 .

97- سورة الرعد الآية 17 .

وهو عكس المقدس ، وقد أورده الراوي في عدة مواطن في الرواية كقوله : " أنتم الدين خرجتم عن طاعته .. ونسيتم أن للأرض رب يحميها من موبقاتكم ، يارواد الحانات ودور الفساد....." ، وقوله " أعلن الحرب عن المشعوذين والعرافات .....، وانتشر في شوارع تام سيتي العرافين والعرافات "[98]

وقد توالت الفضاءات المدنسة في الرواية قوله { تقضون ليلكم مع الموبقات ، وتعلنون توبتكم في النهار ما أقبحكم }.[99]

4 – الفضاء الإيديولوجي:

عرفت علاقة الرواية بالإيديولوجيا جدلاً نقدياً كبيراً امتدت جذوره الأولى إلى نشأة النص الروائي ، وعلاقته بالواقع الاجتماعي ، وبصيرورة التاريخ كخطاب جمالي حامل لصور ومفاهيم وتطلعات الفرد والمجتمع ، ورؤية الأديب من خلاله للعالم وموقفه من التاريخ ، الأمر الذي جعل التنظير للرواية يأخذ طابعاً فلسفياً ، يجمع مفاهيم متعددة .

فالإيديولوجيا ترتبط بطبقة اجتماعية ، حينما تكون في الحكم ،أي في ممارستها الفعلية للسلطة ، وتكمن فعالية ودور الايدلوجيا واقعياً أو نظرياً ، ولا يمكن أن يحدد إلا داخل إطار العلاقة مع الطبقات الاجتماعية.

وتتضح الإيديولوجيا في الرواية من خلال المعنى السابق على أنها المكون لمحتوى النتاج الروائي كما يحدد ذلك (بيار مشيري) ويقصد بالايدلوجيا هنا تلك التي تشغل بالحقل السياسي ، أي تلك التي تتجلى من موقف الأبطال وشخوص الرواية كل وفق انتمائه الفكري ورؤيته للواقع ، ودخولها في حالة تصادم وبذلك تلعب هذه الإيديولوجيات دورا تشخيصيا ذا طبيعة جمالية من أجل توليد تصور شمولي وكلي ، الذي هو في نهاية المطاف تصور الكاتب المبدع ورؤيته [100].

ومن بين الفضاءات الإيديولوجية في الرواية قوله " وجود تحالف سري بين القاعدة وجناح قوي في وكالة المخابرات الأمريكية يقضي بفتح ثغرة في النظام الأمني الأمريكي ..."[101]وقوله : " كما أن المخابرات الأمريكية التي لها صلة بالحرب عن الإرهاب ، وإدارة الأمن القومي الأمريكي ..." [102].

98- الرواية ص : 15 .

99- المرجع نفسه .

100- الرواية المغاربية ، تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي ، إبراهيم عباس ،دار الرائد للكتاب الجزائر ط 1 ، 2005 ،ص : 60 .

[101]- الروية ص : 04 .

[102]- الروية ص : 04.

المبحث الثاني :تجليات المكان في رواية اعترافات اسكرام :

من بين الأعمدة الرئيسة في بناء شعرية الرواية وجماليتها وقدرتها على وضع المتلقي في جوٍّ من التعلق بالقص والحكي هو المكان ،فلا نكاد نعثر على رواية في الأدب العالمي والغربي والعربي إلا واتكأ أصحابها في كتاباتهم على زخرفة المكان، وفي الرواية الجزائرية تحديداً عمد الروائيون الجزائريون إلى الوقوف على المكان وصناعته والتفنن في رسمه باستعمال الحرف العربي، ولعل دراسة شعرية الفضاء عند غاستون باشلار هي التي نبهت النقاد والباحثين إلى أهمية المكان في الابداع الروائي العربي ،فكان غالب هلسا هو أول الدارسين للمكان ،وذلك في كتابه :المكان في الرواية العربية[103] ،وانطلاقاً من رؤيته ورؤية العديد من النقاد العرب فإن صناعة الرواية تقوم على شعرية المكان وفنيته فهو قطب الرحى في العملية السردية.

وقد برع بعض الروائيين الجزائريين في توظيف المكان في خطاباتهم الابداعية ،مثل المثال الذي بين يدينا ،وهو عز الدين مهيوبي في روايته اعترافات اسكرام ،فاعترافات اسكرام زحزحة لحقيقة المكان وتدوير له حتى أصبح هاجساً لدى المتلقي من عتبة النص ،فكيف يعترف اسكرام؟ وما هو هذا اسكرام؟ وأين يكمن أو يوجد هذا المكان تحديداً؟ لماذا؟ يعترف ،وبماذا ؟ أسئلة متتالية تطرحها العتبة الأولى للنص اعترافات اسكرام.

لقد عمد الروائي عز الدين مهيوبي إلى الانطلاق من المكان في العتبة الأولى من النص على أن مادة الرواية الأولى هي المكان فجماليته بارزة من الابتداء ،فاسكرام هو مسرح الأحداث وفضاء تضطرب فيه الشخصيات مختلقة لنفسها جواً من الزمن الاستشرافي، واضعاً المتلقي في حالة من التقاطبات المكانية الجميلة ،الاعتراف الذي يقابله الصمت والسكوت لهذا الجماد وهو الجيل (اسكرام) ، فالعتبة مخلخلة للنظام وكاسرة لأفق انتظار التلقين النموذجيين ،كيف يكون مع القارئ السابح أو العادي.

إن عنوان اعترافات اسكرام نص مفعم بالدلالة المعرفية الجميلة وثقيل بالمعاني اللغوية والثقافية والاجتماعية الصحراوية وتتجلى فيه تلك الرؤية الاستشرافية التي تستنطق المستقبل بعيون المكان ،فشاعرية المكان تمثل ثنائية ضدية التقابل مستور ومدسوس يتوق صاحب النص إلى فضح المخفي على لسان اسكرام ليزيل اللبس عن ما يدور في دروب اسكرام وفي حفره ووديانه وحتى فضائه الرحب في أقاصي الصحراء ويكون بالتالي مكاناً منسجماً للتصوير ،لأنه اسكرام علوي يطل من خلاله على مجريات اليوميات وما يقع في أقاصي الصحراء هو المكان الذي يلجأ له القارئ بعيدا عن الحياة المتحضرة المتمدنة ،« ولعل هذه التقنية التي تؤدي إلى تغييب الدلالات الواضحة الكاملة والرموز التي

---

[103]. عربها غالب هلسا بعنوان جماليات المكان ،م.ج، بيروت ،1984،ط2

تعبر الملمح الرئيسي في شعرية الحداثة إذ ترتكز على فلسفة محددة مدارها أن الموجود بالمطلق يتحقق في الانسان باعتباره عقلاً أي باعتباره لغة أو كائناً لغوياً قبل كل شيء بحيث يولد هذا المطلق في اللغة لا في أي مكان آخر»[104].

وعليه فالعتبات النصية مؤهلة للقارئ ومرشدة له ودالة على نظرته وتطلعاته وتوقعاته ،يقول الراوي : « في ربيع 2037اختار رجل ألماني يدعى أدولف هوسمان بناء فندق قريب من من قمة اسكرام ،وأطلق عليه اسم اسكرام بالاس واختار له هندسة معمارية مشابهة لقمة الجبل الاسطوري .فرأى الناس فيه تحفة معمارية منحت الأهقار بعداً سياحيا آخر»[105].

لقد سوّق الروائي في بدايات الرواية المكان من خلال الرسم اللغوي، جاعلاً منه الركيزة الأساسية حيث إن الجبل الأسطوري اسكرام هو الصورة التي صنع منها هندسة المكان ورسم أبعاده ،وهي ديباجته فيها من الجمالية والشعرية وهو ما يخول له فيما بعد شساعة الرؤيا الابداعية

إن صناعة الخطاب الروائي ورسم ملامحه الشعرية يتأتى من حسن اختيار عنصر المكان وبراعة رسم معالمه ،فالشعرية الخطابية للنص جمال ينعكس في غير ما موضع بداية بعتبة العنوان ،فاسكرام مكان له دلالة المكان الصحراوي الشاسع والبعيد المتناهي في الخطر والموت يتربص به وبمن يقطنه في كل مكان ،وفي الجهة العكسية هو يترجم فضاء الصحراء بأبعاده الدالة على النقاء ،والمبالغة في الصفاء والصلاح وعادة ما عاد العرب في حكاياتهم إلى الجبال والوديان ليعبروا من خلالها عن صفاء السريرة وصلاح الطوية.

اجتمع في العنوان أمران ،أما الأول فهو العدول عن مألوف الاعترافات ،وأما الثاني فشعرية تناص عنوانها مع نصها ما أحدث نوعاً من الضبابية في طرح السؤال وفي الاجابة عنه تحديداً وهو مناط الشعرية الحديثة للخطاب ،فالرواية في نظر باختين :« هي التنوع الاجتماعي للغات والأصوات الفردية تنوعاًمنظماً أدبياً»106ولكن يدلل باختين على الصفتين الأساسيتين ، المميزتين لنسيج الخطاب الروائي ، وهما تعدد الملفوظات والتناص....[107]

إن الإتيان على ذكر المكان ووضعه في موقف المعترف الواعي بمجريات الأحداث ضرب من الشاعرية الجمالية ، فكيف نرفق ونربط الجماد (اسكرام وجبل) ، والاعتراف الذي يغري للإنسان الذي يحاكم ويسأل . هنا المفارقة الجمالية ، وهو ما يضع هذا المكان في جو من الجمالية والشاعرية الخطابية الأدبية للمكان .ً إن مخاطبة الحواس والتمرد

---

[104]- عبد الله الغدامي ،الكتابة ضد الكتابة ،دار الآداب ،بيروت ،ط1،1991،ص:120.

[105]الرواية ،ص:33

[106]- الخطاب الروائي ، ميخائيل باختين ، ترجمة محمد برادة ، ط1 ، دار الفكر للدراسات والشر والتوزيع ،ص:16.

[107]- المرجع نفسه ص : 17 .

على الدلالة الحرفية ، واكتشاف علاقة ، وتحرك الخيال بين قطبين ، وادماج الحسي بالمجرد .... ما ينبغي أن يتحقق في الصورة الشعرية... والصورة أو الصور تكثيف هادف إلى الاستنثار ، وبناء من عناصر قلقة تسعى إلى التوحد ، وتوتر الادراك الفكري يخلق الانسجام "[108]

ومن هنا فإن بنية خطاب العنونة عند عز الدين مهيوبي تمثيل للصورة الخيالية الذهن ، وعليه يتمثل لنا بنموذج الفضاء والمكان الأسطوري إلى المكان الحقيقي المقصود ، وإمعاناً في العديد من الدراسات الأدبية النقدية لبعض الأعمال ، فلقد حاول العالم الفرنسي " رولان بورنوفRULAN PURNUF في كتابه العالم الروائي تقديم تصورات جديدة للفضاء الروائي تتعلق بالحضور الداخلي الذي يخضع له الوصف المكاني في داخل المتن الروائي ، معترفاً وصفًا دقيقاً " لطبوغرافيا الحدث وأن نحلل مظاهر الوصف ونهتم بوظائف المكان في علاقاته مع الشخصيات ،والمواقف والزمن ، وأن نقيس درجة كثافة أو سيولة الفضاء الروائي "[109]

فصناعة المكان وجماليته في الرواية تقتضي التشوق إلى طريقة رسم معالمه وسبب تركيبه . يقول الراوي :" اكتب لك من الصحراء التي أحببت ، وأنا أتحسس طريق الأب شارل دي فوكو الذي قلت لي مراراً أن على يديه فرنسا إلى حيث لا تصل العفريت متليلي تختلف عن المدن الأخرى ، أهلها أيضاً يختلفون عن سكان الشمال ، طيبون ولا يأمنون الأغراب ، كتيبتنا تقوم بتأمين الحراسة لقوافل الإمداد الحربي المتجهة نحو مدن الجنوب عين صالح وجانت وتمنراست .

أخبرني قائد الكتيبة أنني سأنتقل في نهاية العالم إلى وادي سوف حيث تم إنشاء مركز حدودي ، ربما توكل إلي قيادته .

أقضي أيامي مع الكتابة ، وهذه الصحراء الموحشة ، وواحاتها تدفع الإنسان إلى أن يكون شاعراً رغم أنفه ، إذ صار بحوزتي كثير من الأشعار ، جمعتها في دفتر ، وأطلقت عليها اسم " بارودة الشمس والورد " وسأهديها للمولود الذي انتظر قدومه"[110]

يتفق الراوي وصانع الرواية السردية الإلماح إلى تأثيث المكان ، ورسم أبعاده ، ولعل الإشارات إلى متليلي ،ووادي سوف ، وجانت ، وتمنراست أبيات للوصول في الأخير إلى فضاء صحراوي مترامي الأطراف ، موحش في حياته.

---

[108] الصورة والبناء الشعري ، محمد حسن عبد الله ، دار المعارف 9111 كورنيش النيل ، القاهرة ج.م.ع . ص 37 .

109- بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي ص: 26 .

110- الرواية ص :100.

إن قراءة انطوان لرسالة أبيه من بين جموع الرسائل التي أراد ترتيبها ، وهي رسالة متليلي في 12 أكتوبر 1953 ، اختار له من الشاعرية ما يجعله حاضراً وقائمة بين جنباته ، هذه الجمالية الشاعرية لطريقة تقديم المكان في الرواية نضج سردي ميسور ، وهذا التطور لعنصر المكان الروائي ، إعادة للاعتبار للمكان ووضعه في جو يجعله مهماً ورمزياً حكائياً في نفس الوقت بالنظر إلى طبيعة الشخصية التي ستمارس فيه أحداثاً مستقبلية تمتاز بميزة عسكرية صعبة ومليئة بالمغامرات الكثيرة .

إن دلالة المكان سيميائية تشهيرية للأحداث ، وتنشيط جمالي للبرنامج السردي ، ذلك أن السيميائية تشترط في جماليات الفضاءات وشاعريتها التأثيث111 .ومشاركة كل الحواس ، ويضطرنا إلى اعطاء أهمية بالغة للأوصاف المحسوسة ، مرئية لمسية ،وإن الاتيان على ذكر الفضاءات الصحراوية في هاته الرسالة إرهاص لبداية الاحداث ومقابل للفضاء المقدس ، المدنس في الآن ذاته ، فالفضاء الصحراوي وجهان لعملة واحدة ، ضياع وغياب ، وفقد للذاكرة المنسية ، فالسردية الجزائرية ، وعند عز الدين مهيوبي بنيت في العديد من المرات على ثنائيات المكان الضدية ، فلجأ الروائي إلى رمز الصحراء للاعتراف ، حيث انطلق من هذا الفضاء الطاهر ، والواسع الفسيح أن يعمد من العالم الغريب عن واقعه ليسقط عليه رؤاه ،التي يخشى معالجتها صراحاً ، وهو ما يحول هذا الفضاء إلى رمز وقناع يخفي المباشرة ، ويسمح لفكر المبدع أن يتسرب من خلاله ، وقد يكون هذا المكان تقنية مستقبلية يتجاوز فيها المبدع مكانه وواقعه ،فيصعد الى السماء ، وقد ينزل إلى أعماق الأرض ل الرمز نفسه ويهرب .

اعترف عز الدين مهيوبي في خطابه السردي من معين الفضاءات المفقودة الخيالية بأوصافها لا يتموقعها ، فتقع بأسكرام ، وبفضاءات الصحراء لسرد الإحداث .

111- بنية النص السردي ، حميد لحميداني ص :53 .

وختاما يمكن القول أن الروائي عز الدين ميهوبي يشكل عالمه الروائي من المفردات والعناصر نفسها ،اذ يقوم بتوسيع منظوره للأشياء والطقوس والتقاليد ،وإعادة النظر عملا روائيا وراء عمل ،وكأنه يقلب عالم الصحراء على مهل ،كاشفا عن امتدادها اللانهائي ،وأسرارها التي لاتنتهي ،وقدرة الإنسان على تجاوز البرزخ الفاصل بين طبيعتي حب الخير والشر ،والحقد والانتقام ،ليتسامى مع حب التسامح والمغفرة والابتعاد عن الذنوب .

وقد تميز الروائي عز الدين ميهوبي من خلال روايته ، بشخصية قوية وحنكة متميزة ،من خلال سرده للأحداث بطريقة محكمة ومتسلسلة ولان الرواية كجنس أدبي راق هي الدافع والمتخيل معا ،اذ يتماهى فيها الواقع بالخيال أحيانا فيعد وأكثر خيالية منه ،كما أن السارد ذاته يؤمن بكونه يتناول عالما فيعد و أكثر خيالية منه ،كما أن السارد ذاته يؤمن بكونه يتناول عالما قائما على التحولات من خلال روايته ومن هنا كانت الرواية خطابا متحولا بامتياز وهي نتامزج بين التاريخ والعلم والأسطورة والشعر والدين والسياسة والنبؤة في نوع من التماهي بين كافة الأجناس الأدبية والمجالات العلمية من أجل إنتاج عمل أدبي يمثل روح العولمة .

ومن خلال قراءتنا للرواية والغوص في ثناياها خلصنا إلى عدة نقاط أهمها

1 – الرواية حاولت كشف عوالم الصحراء ،لان الصحراء مرتع فذ للخيال ،وفضاء لا يضاهي لمسارات من السرد ،فهي التي ألهمت الشعراء والروائين ، والمستكشفين ،وغيرهم ليدخلوها ويخرجوا منها وهم على غير ما كانوا عليه .

2– لقد كان للمكان حظ وحضور وافر في الرواية ، فالحيز المكاني في النص السردي هو الفضاء التي يتحدد داخله مختلف المشاهد والصور والمناظر والدلالات والرموز فالمكان من أهم العناصر الأساسية في بناء العمل السردي وهو الإطار الذي تنطلق منه الأحداث له مقومات الخاصة ولأبعاده المتميزة ،التي تعبر عن الهوية والكينونة والوجود .

3– اتسمت الرواية بتعدد الفضاءات وتنوعها ومنها الفضاءات المفتوحة ، الفضاءات المغلقة ،الفضاءات المقدسة والمدنسة ،والفضاءات الايديولوجية وغيرها .

4– قام عز الدين مبهوبي بتقسيم روايته (اعترافات اسكرام) إلى سبعة أجزاء أوأبواب أو نوافذ .

5– جاءت الرواية مفعمة باالدلالات الاجتماعية منها ما تعلق بالمعتقدات والفتن والحروب وغيرها من الدلالات الاجتماعية .

فالرواية إذن تدل على عمق ثقافة صاحبها واعتدال فكره لأنه حاول أن يستنطق غياهب الصحراء الجزائرية ، وفد نجح عز الدين ميهوبي نجاحا كبيرا مما يجعل المتلقي يقف مندهشا أمام هذا العمل الضخم الذي لقي نجاحا فائقا أبهر القارئ الجزائري خاصة والعالمي عامة .

وفي الأخير لا يسعنا إلا أن تقول أن أصبنا فمن المولى عز وجل ، وان أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان .